ســـورة الكهـف

مكية إلا آية ٢٨ ومن آية ٨٣ إلى غاية آية ١٠١ فمدنية وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية.

وهي مكية في قول جميع المفسرين. وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرُزًا﴾، والأول أصح. وروي في فضلها من حديث أنس أنه قال: من قرأ بها أعطي نوراً بين السماء والأرض ووقي بها فتنة القبر. وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة: إن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على سورة شيّعها سبعون ألف مَلَك ملأ عظمها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك». قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نوراً يبلغ السماء ووقي فتنة الدجال»(١) ذكره الثعلبيّ، والمهدوي أيضاً بمعناه. وفي مسند الدّارميّ عن أبي سعيد الخدري قال: من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق(٢). وفي صحيح مسلم عن أبي الدّرداء أن نبيّ الله ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عصم من الدجال»(٣). وفي رواية «من آخر الكهف»(٤). وفي مسلم أيضاً من حديث النواس بن سمْعان: «فمن أدركه يعني الدجال فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»(٥). وذكره الثعلبيّ. قال سَمُرة بن جُندب قال النبيّ ﷺ: «من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم تضره فتنة الدجال»، ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة»(٦).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ ﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا﴾ ذكر ابن إسحاق: أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما: سَلاهم عن محمد وصِفَا لهم صفته وأخبراهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء؛ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره،

---

(١) ضعيف جداً وهو مرسل: وابن أبي فروة هذا متروك.

(٢) صحيح مرفوعاً وموقوفاً: الدارمي (٣٤٠٧) (٢/٤٥٤) في سننه موقوفاً والحاكم (٢/٣٩٩) مرفوعاً، وصحح الألباني هاتين الروايتين وانظر صحيح الجامع (٦٤٧٠) ـ ٦٤٧١) وزاد عزوها إلى البيهقي وفيه لفظ «أضاء له النور ما بين الجمعتين»، والله أعلم.

(٣) صحيح: مسلم (٨٠٩) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) هذا الرواية عند مسلم (٨٠٩/٢٥٧) مكرر، وفيه قال قتادة: قال شعبة عن آخر الكهف، وهي شاذة وحكم عليها الألباني (٥٧٦٠) بالشذوذ في ضعيف الجامع (٥٧٦٠).

(٥) صحيح: مسلم (٢٩٣٧) في الفتن ضمن حديث طويل عن النواس رضي الله عنه.

(٦) لم أجده هكذا.

obeikandi.com

وصفًا لهم صفته وأخبراهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء؛ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أحبار يهود: سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عَجَب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه. وسلوه عن الروح، ما هي؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن[1]. فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وَحْياً ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف[2] أهل مكة وقالوا: وَعَدَنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه؛ وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف والروح[3]. قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «لقد احتبست عني يا جبريل حتى سُؤت ظنا» فقال له جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده، وذكر نبوّة رسوله ﷺ لما أنكروا عليه من ذلك فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] يعني محمداً، إنك رسول منّي، أي تحقيق لما سألوا عنه من نبوّتك. ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ قَيِّمًا﴾ أي معتدلاً لا اختلاف فيه. ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي عاجل عقوبته في الدنيا، وعذاباً أليماً في الآخرة، أي من عند ربك الذي بعثك رسولاً. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي دار الخلد لا يموتون فيها، الذين صدّقوك بما جئت به مما كذّبك به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال. ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني قريشاً في قولهم: إنا نعبد الملائكة وهي بنات الله. ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي لقولهم إن الملائكة بنات الله. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ۝ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أي لا

---

(١) لم يستثن : أي لم يقل : إن شاء الله .

(٢) أرجف القوم : إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن اللسان (رجف) .

(٣) ضعيف : الطبري (١٥/١٩٣-١٩٣) بسند فيه جهالة شيخ ابن إسحاق المحدث له .

تفعل. قال ابن هشام: ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ مُهْلك نفسك؛ فيما حدّثني أبو عبيدة. قال ذو الرُّمّة:

ألا أيّهذا الباخعُ الوَجْدُ نفسَه بشيء نَحتْه عن يَدَيْه المَقادرُ

وجمعها باخعون وبخعة. وهذا البيت في قصيدة له. وتقول العرب: قد بخعت له نُصْحي ونَفْسي، أي جَهَدت له. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال ابن إسحاق: أي أيّهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي. ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي الأرض، وإن ما عليها لفان وزائل، وإن المرجع إليّ فأجزي كلاً بعمله؛ فلا تأسى ولا يحزنك ما ترى وتسمع فيها. قال ابن هشام: الصّعيد وجه الأرض، وجمعه صُعُد[1]. قال ذو الرُّمّة يصف ظبياً صغيراً.

كأنه بالضُّحَا تَرمي الصعيدَ به دبّابةٌ في عِظام الرأس خُرطوم

وهذا البيت في قصيدة له. والصعيد أيضاً: الطريق، وقد جاء في الحديث: «إياكم والقعود على الصُّعُدات»[2] يريد الطرق. والجُرُز: الأرض التي لا تنبت شيئاً، وجمعها أجراز. ويقال: سَنَةٌ جُرُز وسنون أجراز؛ وهي التي لا يكون فيها مطر. وتكون فيها جدوبة ويبس وشدّة. قال ذو الرمّة يصف إبلاً:

طَوَى النَّحْزُ والأجراز ما في بطونها فما بقِيتْ إلا الضّلوع الجراشِعُ

قال ابن إسحاق: ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حجتي ما هو أعجب من ذلك. قال ابن هشام: والرقيم الكتاب الذي رُقِم بخبرهم، وجمعه رُقُم. قال العَجّاج:

ومُسْتَقَرِّ المصحف المُرَقَّمِ

وهذا البيت في أُرْجوزة له. قال ابن إسحاق: ثم قال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾. ثم قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بصدق الخبر ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم. قال ابن هشام: والشَّطَطُ الغُلُوّ ومجاوزة الحق. قال أعشى بني قيس بن ثَعْلبة:

أتنتهون ولا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كالطعن يذهب فيه الزَّيْت والفُتُلُ

وهذا البيت في قصيدة له. قال ابن إسحاق: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾. قال ابن إسحاق: أي بحجة بالغة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/ ١٩٠-١٩٢) عن ابن اسحاق به.

(٢) إنما هو إياكم والجلوس في الطرقات رواه البخاري (٦٢٢٩) في الأدب، مسلم (٢١٢١/ ١١٤) في اللباس والزينة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ولفظ المصنف بنحوه «ما لكم ولمجالس الصعدات، اجتنبوا مجالس الصعدات» رواه مسلم (٢١٦١) في السلام عن أبي طلحة رضي الله عنه.

طَلَعت تَزَاوَرُ عن كهفهمْ ذاتَ اليَمينِ وإذا غرَبت تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ في فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ قال ابن هشام: تزاور تميل؛ وهو من الزَّوَر. وقال أبو الزحف الكُلَيْبيّ يصف بلداً:

جَدْبِ المُنَدَّى عن هوانَا أزْوَرُ ... يُنْضِي المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ

وهذان البيتان في أرجوزة له. و﴿تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ﴾ تجاوزهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرُّمّة:

إلى ظُعُن يَقْرِضن أقواز مُشْرِف ... شِمالاً وعن أيْمانهن الفوارِسُ

وهذا البيت في قصيدة له. والفجوة: السَّعة، وجمعها الفجاء. قال الشاعر:

ألبسْتَ قومَك مَخْزاة ومنقصةً ... حتى أبيحُوا وحَلُّوا فَجْوة الدار

﴿ ذلكَ مِنْ آياتِ اللهِ ﴾ أي في الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم في صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم. ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وتَحْسَبُهُمْ أيْقَاظًا وهُمْ رُقُودٌ ونُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ وكَلْبُهُم باسِطٌ ذِراعَيْهِ بالوَصيدِ﴾ قال ابن هشام: الوصيد الباب. قال العبسي واسمه عبد بن وهب:

بأرضِ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصيدُها ... عليّ ومعروفي بها غير مُنْكَرِ

وهذا البيت في أبيات له. والوصيد أيضاً الفناء، وجمعه وصائد ووصد ووصدان؛ ﴿ لو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ منهُمْ فِرارًا ﴾ـ إلى قوله: ﴿الَّذين غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ أهل السلطان والملك منهم. ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولونَ﴾ يعني أحبار اليهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم. ﴿ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي لا تكابرهم ﴿إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ فإنهم لا علم لهم بهم. ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ أي لا تقولنّ لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا إني مخبركم غدًا، واستثن مشيئة الله، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربّي لخبر ما سألتموني عنه رَشَدا، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ أي سيقولون ذلك. ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أي لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه[1].

قلت: هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه. ويأتي خبر ذي القرنين، ثم نعود إلى أوّل السورة فنقول:

قد تقدّم معنى الحمد لله. وزعم الأخفش والكسائيّ والفرّاء وأبو عبيد وجمهور المتأوّلين أن في أوّل هذه السورة تقديماً وتأخيراً، وأن المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً. و﴿قَيِّمًا﴾ نصب على الحال. وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير، ومعناه: ولم يجعل له عوجاً ولكن جعلناه قيّماً. وقول الضحاك فيه حُسْن، وأن المعنى: مستقيم، أي

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٤-١٩٥) والكلام كله نقلاً عنها .

obeikandi.com

مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض. وقيل: ﴿قَيِّمًا﴾ على الكتب السابقة يصدّقها. وقيل: ﴿قَيِّمًا﴾ بالحجج أبداً. ﴿عِوَجًا﴾ مفعول به؛ والعوج (بكسر العين) في الدين والرأي والأمر والطريق. وبفتحها في الأجسام كالخشب والجدار؛ وقد تقدّم. وليس في القرآن عوج، أي عيب، أي ليس متناقضاً مختلفاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وقيل: أي لم يجعله مخلوقاً؛ كما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ قال: غير مخلوق. وقال مقاتل: ﴿عِوَجًا﴾ اختلافاً. قال الشاعر:

أدوم بودّي للصديق تكرُّماً ولا خير فيمن كان في الودّ أعْوَجَا

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذر محمد أو القرآن. وفيه إضمار، أي لينذر الكافرين عقاب الله. وهذا العذاب الشديد قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة. ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي من عنده. وقرأ أبو بكر عن عاصم «من لدنه» بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون، والهاء موصولة بياء. الباقون «لُدُنْه» بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء. قال الجوهري: وفي «لدن» ثلاث لغات: لَدُن، ولَدَى، ولَدُ. وقال:

مِن لَدُ لِحْيَيْه إلى مَنْحُوره

المنحور لغة في المَنْحَر.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم. ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهي الجنة: ﴿مَّاكِثِينَ﴾ دائمين. ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ لا إلى غاية. وإن حملت التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء في «بأن». والأجر الحسن: الثواب العظيم الذي يؤدي إلى الجنة.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود، قالوا عزير ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله، وقريش قالت الملائكة بنات الله. فالإنذار في أوّل السورة عام، وهذا خاص فيمن قال لله ولد. ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ صلة، أي ما لهم بذلك القول علم؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل. ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ أي أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ ﴿كَلِمَةً﴾ نصب على البيان؛ أي كبرت تلك الكلمة كلمةً. وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق «كلمةٌ» بالرفع؛ أي عظمت كلمة؛ يعني قولهم اتخذ الله ولداً. وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار. يقال: كبر الشيء إذا عظم، وكبر الرجل إذا أسنّ. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ في موضع الصفة. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ ﴿بَاخِعٌ﴾ أي مُهلك وقاتل؛ وقد تقدّم. ﴿آثَارِهِمْ﴾ جمع أثر، ويقال إثر. والمعنى: على أثر تولّيهم وإعراضهم عنك. ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ أي

القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ أي حزناً وغضباً على كفرهم؛ وانتصب على التفسير.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾.

فيـه مسألتـان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ «ما» و «زينةً» مفعولان. والزينة كل ما على وجه الأرض؛ فهو عموم لأنه دال على بارئه. وقال ابن جبير عن ابن عباس: أراد بالزينة الرجال[١]؛ قال مجاهد. وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء[٢]. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ قال: العلماء زينة الأرض. وقالت فرقة: أراد النّعم والملابس والثمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب[٣]. والقول بالعموم أولى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه. والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها؛ فمنهم من يتدبّر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظُمنّ عليك كفرهم فإنا نجازيهم.

الثانية: معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبيّ ﷺ: «إن الدنيا خضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون»[٤]. وقوله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا» قال: وما زهرة الدنيا؟ قال: «بركات الأرض»[٥] خرجهما مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدريّ. والمعنى: أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المستحلى المعجب المرأى؛ فابتلى الله بها عباده لينظر أيّهم أحسن عملاً. أي من أزهد فيها وأترك لها؛ ولا سبيل للعباد إلى بغضة ما زيّنه الله إلا أن يعينه على ذلك. ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري: اللهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا، اللّهمّ إني أسألك أن أنفقه في حقه[٦]. فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه. وهذا معنى قوله عليه السلام: «فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع»[٧]. وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها

---

(١) انظر المحرر الوجيز (١٠/ ٣٦٥) وعزاه السيوطي (٩/ ٤٨٥) في الدر المنثور لابن المنذر وابن مردويه عن سعيد بن جبير.

(٢) انظر ابن عطية (١٠/ ٣٦٥) في المحرر الوجيز.

(٣) في الدر المنثور (٩/ ٤٨٥) عزاه لأبي نصر السجزي في الإبانة به.

(٤) صحيح: مسلم (٢٧٤٢) في الرقائق.

(٥) صحيح: البخاري (٦٤٢٧) في الرقاق، مسلم (١٠٥٢) في الزكاة.

(٦) علقه البخاري في الرقاق باب (١١) ووصله الحافظ ابن حجر (١١/ ٢٥٩) في الفتح وعزاه للدارقطني في غرائب مالك وفيه ضعف، والله أعلم.

(٧) صحيح: البخاري (١٤٧٢) في الزكاة، مسلم (١٠٣٥) في الزكاة عن حكيم بن حزام رضي الله عنه.

بل همّته جمعهـا؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله؛ فإن الفتنة معهـا حاصلةٌ وعدم السلامة غالبة، وقـد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه. وقـال ابن عطية: كان أبي رضي الله عنه يقول في قوله: ﴿ أحسن عملاً﴾ أحـسن العمل أخذٌ بحقّ وإنفاقٌ في حق مع الإيمان، وأداء الفرائض واجتنابُ المحارم والإكثارُ من المندوب إليه.

قلت: هذا قول حـسن، وجيز في ألفاظه بليغ في مـعناه، وقد جمعـه النبيّ ﷺ في لفظ واحد وهو قوله لسفـيان بن عبد الله الثَّـقَفيّ لما قال: يا رسول الله، قل لي في الإسـلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعـدك في رواية: غيرك. قال: « قل آمنت بالله ثم استقم» (١) خرّجـه مسلم. وقال سفـيان الثّوريّ: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أزهدهم فيها. وكذلك قال أبو عصام العسقلاني: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أترك لها. وقد اختلفت عبارات العلماء في الزهد؛ فقال قوم: قصرُ الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء؛ قاله سفيان الثّـوريّ. قال علماؤنا: وصدق رضي الله عنه فإن من قَصُر أملـهُ لم يتأنّق في المطعومات ولا يتفنّن في الملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسّر، واجتزأ منها بما يبلِّغ. وقال قوم: بغضُ المحمدة وحبُّ الثناء. وهو قول الأوزاعيّ ومن ذهـب إليه. وقال قوم: ترك الـدنيا كلها هو الزهد؛ أحَبَّ تركـها أم كره. وهو قـول فضيل. وعن بشر بن الحـارث قال: حبُّ الدنيا حبُّ لقـاء الناس، والزهد في الدنيا الزهد في لقاء الناس. وعن الفـضيل أيضاً: عـلامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس. وقـال قوم: لا يكون الزاهد زاهداً حتـى يكون ترك الدنيا أحبَّ إليه من أخـذها؛ قاله إبراهيم بن أدهم. وقـال قوم: الزهد أن تزهد في الدنيا بقلبك؛ قاله ابن المبارك. وقالت فرقة: الزهد حبّ الموت. والقول الأول يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى.

﴿ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝ ﴾

تقدّم بيانه. وقال أبو سهل: تراباً لا نبات به؛ كأنه قُطع نباته. والجَرْز: القطع؛ ومنه سنة جُرُز. قال الراجز:

قد جَرَفْتهنّ السِّنون الأجْرَاز

والأرض الجرز التي لا نبـات فيـها ولا شيء من عمـارة وغيرها؛ كـأنه قطع وأزيل. يعني يوم القيامة، فـإن الأرض تكون مستوية لا مستـتر فيها. النحاس: والجـرز في اللغة الأرض التي لا نبات بها. قال الكسائي: يقال جرزت الأرض تجرز، وجرزها القـوم يجرزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجروزة وجرز.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ۝ ﴾

مذهـب سيبـويه أن ﴿أَمْ﴾ إذا جـاءت دون أن يتقـدّمهـا ألف استـفـهام أنهـا بمعنى بل وألف الاستـفهام، وهي المنقطعـة. وقيل: ﴿أَمْ﴾ عطف على معنى الاسـتفهـام في لعلك، أو بمعنى ألف الاستفـهام على الإنكار. قال الطبري: وهو تقـرير للنبيّ ﷺ على حسابه أن أصحـاب الكهف كانوا

(١) صحيح: مسلم (٣٨) في الإيمان .

عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه» أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق. والخطاب للنبيّ ﷺ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فتية فقدوا، وعن ذي القرنين وعن الروح، وأبطأ الوحي على ما تقدّم[١]. فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً؛ أي ليسوا بعجب من آياتنا، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم. الكلبي: خَلْقُ السموات والأرض أعجبُ من خبرهم. الضحاك: ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب. الجنيد: شأنك في الإسراء أعجب. الماورديّ: معنى الكلام النفي؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا. أبو سهل: استفهام تقرير؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب. والكهف: النَّقْب المتّسع في الجبل؛ وما لم يتّسع فهو غار. وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال: الكهف الجبل؛ وهذا غير شهير في اللغة.

واختلف الناس في الرقيم؛ فقال ابن عباس: كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة: غسْلين وحَنَان والأوّاه والرقيم[٢]. وسئل مرة عن الرقيم فقال: زعم كعب أنها قرية خرجوا منها[٣]. وقال مجاهد: الرقيم واد.[٤] وقال السّدي: الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف[٥]. وقال ابن زيد: الرقيم كتاب غمّ الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصته[٦]. وقالت فرقة: الرقيم كتاب في لوح من نحاس. وقال ابن عباس: في لوح من رصاص كَتب فيه القوم الكفارُ الذين فرّ الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخاً لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، وبين من كانوا. وكذا قال الفراء، قال: الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا. قال ابن عطية: ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرّخين للحوادث، وذلك من نبل المملكة؛ وهو أمر مفيد. وهذه الأقوال مأخوذة من الرَّقْم؛ ومنه كتاب مرقوم. ومنه الأرقم لتخطيطه. ومنه رَقْمة الوادي؛ أي مكان جَرْي الماء وانعطافه. وما روي عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأوّل إنما سمعه من كَعْب. والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده، وروى عنه سعيد بن جُبير قال: ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال: إن الفتية فقدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال: ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحاً من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله في خزانته؛ فذلك اللوح هو الرقيم[٧]. وقيل: إن مؤمنين كانا في بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم في لوح من رصاص ثم جعلاه في تابوت من نحاس وجعلاه في البنيان؛ فالله أعلم. وعن ابن عباس أيضاً: الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام. وقال النقاش

---

(١) ولكنه ضعيف كما سبق .

(٢) كاد هذا الأثر أن يكون صحيح الإسناد لولا اضطراب رواية سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الطبري (١٥/ ٢٠٠) .

(٣) لا بأس بإسناده : الطبري (١٥/ ١٩٩) قلت : وبعضهم يرويه عن كعب كما ذكر المصنف هنا .

(٤) صحيح إلى مجاهد : السابق / نفسه .

(٥) السابق (عن ابن عباس منقطعاً وعن مجاهد وعن سفيان) الجبائي .

(٦) وربما كان هذا هو الصحيح .

(٧) وقد قال الطبري إلى هذا .

عن قتادة: الرقيم دراهمهم. وقال أنس بن مالك والشعبيّ: الرقيم كلبهم. وقال عكرمة: الرقيم الدواة. وقيل: الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر. وقيل: الرقيم أصحاب الغار الذي انطبق عليهم؛ فذكر كلُّ واحد منهم أصلح عمله.

قلت: وفي هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان[١]، وإليه نحا البخاري[٢]. وقال قوم: أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشيء. وقال الضحاك: الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفساً كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هذا هم فتية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف. والله أعلم. وقيل: الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف[٣]؛ مأخوذ من رقمة الوادي وهي موضع الماء؛ يقال: عليك بالرقمة ودع الضفّة؛ ذكره الغزنوي. قال ابن عطية: وبالشام على ما سمعت به من ناس كثير كهف فيه موتى، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلبٌ رمّة. وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلبٌ رمّة، وأكثرهم قد تجرّد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة. ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم، كأنه قصر مخلق قد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاة من الأرض خربة، وبأعلى غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ [الكهف: ١٨]. وقد قال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتي في آخر القصة. وقال مجاهد في قوله: ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ قال: هم عجب. كذا روى ابن جريج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبيّ ﷺ أن يكون عنده أنهم عَجَب. وروى ابن نجيح عنه قال: يقول ليس بأعجب آياتنا.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ۝﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ رُوي أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، ويقال فيه: دقليوس ويقال فيه دقينوس. وروي أنهم كانوا مطوّقين مسوّرين بالذهب ذوي ذوائب، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى. وقيل: كانوا قبل عيسى، والله أعلم. وقال ابن

(١) قصد بذلك حديث الثلاثة الذين حبستهم الصخرة بالغار، وقد رواه البخاري (٣٤٦٥) في الأنبياء ومسلم (٢٧٤٣) في الذكر والدعاء عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) كذلك في صحيحه في أحاديث الأنبياء باب (٥٢) ثم أتبع هذا بحديث الغار، وأكد ذلك الحافظ ابن حجر (٦/٥٠٦) في الفتح.

(٣) وما الفائدة من معرفة المكان ؟ أو الأسماء ؟ أو حتى المدة؟ إنما هي العبرة السارية إلى يوم القيامة والله أعلم.

عباس: إن ملكا من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها أفْسُوس. وقيل هي طرسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرًا، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلاً، ومرُّوا براع معه كلب فتبعهم فآووا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئاً؛ فقال الملك: سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً. وروى مجاهد عن ابن عباس أيضاً أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين حسبما ذكر النقاش أو من مؤمني الأمم قبلهم فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله؛ فرفع أمرهم إلى الملك وقيل له: إنهم قد فارقوا دينك واستخفّوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته، وتوعدّهم على فراق ذلك بالقتل؛ فقالوا له فيما روي: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾. وروي أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شبان أغمار لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بل أستأني فاذهبوا إلى منازلكم ودبّروا رأيكم وارجعوا إلى أمري، وضرب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم: إني أعرف كهفاً في جبل كذا، كان أبي يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنختف فيه حتى يفتح الله لنا؛ فخرجوا فيما روي يلعبون بالصَّولجان والكرة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم. وروي أنهم كانوا مثقفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا في جملة الناس، ثم أخذوا باللّعب بالصولجان[1] حتى خلصوا بذلك. وروى وهب بن منبّه أن أول أمرهم إنما كان حواريّ لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجّر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة، فألقى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجل فتيان من أهل المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة أراد الخلوة بها، فنهاه ذلك الحواري فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البغيّ، فدخل فماتا فيه جميعاً، فاتهم ذلك الحواريّ وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف. وقيل في خروجهم غير هذا [2].

وأما الكلب فروي أنه كان كلبَ صيد لهم، وروي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس. واسم الكلب حمران وقيل قطمير.

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند في معرفتها واه. والذي ذكره الطبري هي هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلينينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند

---

(١) الصولجان: عصاً معوجة (أو معوج طرفها) يضرب الفارس بها فرسه.

(٢) هذه الرواية وما بعدها من تحديد الأسماء ذكرها الطبري (١٥/ ٢٠٢) وما بعدها عن ابن إسحاق، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عمير ووهب بن منبه، وهي كلها روايات لا يعرف لها سند يمكن الاحتجاج به، ولا مصدر يعرف به صحتها إلا كتب السابقين، وقد سكت الحق تبارك وتعالى عنها فيجب السكوت أيضا عنها، لا البحث حتى عن اسم الكلب !!!

بعثهم من رقدتهـم، ومرطوس وكشوطوش ودينموس ويطونس وبيرونس. قـال مقاتل: وكان الكلب لمكسلمينا، وكان أسنّهم وصاحب غنم.

الثانية: هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبيّ ﷺ فاراً بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار حسبمـا تقدم في سـورة «النحل». وقد نص الله تعالى عـلى ذلك في «براءة» وقد تقـدم. وهجروا أوطانهم وتركـوا أرضهم وديارهم وأهـاليهم وأولادهم وقـراباتهم وإخوانهم، رجـاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسكنَى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضّل رسول الله ﷺ العزلة[(١)]، وفضّلها جماعة العلماء لا سيـما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٥].

قال العلماء :الاعـتزال عن الناس يكون مرّة في الجبال والشّعـاب، ومرة في السواحل والرِّباط، ومرة في البيوت؛ وقد جاء في الخـبر: «إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكفّ لسانك»[(٢)]. ولم يخصّ موضعاً من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك في تـفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خـاضوا في ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلـك فاسكت. وروى البغويّ عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهمْ أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[(٣)]. وروي عن النبي ﷺ قال: «نعم صوامع المؤمنين بيوتهم»[(٤)] من مراسيل الحسن وغيره. وقـال عقبة بن عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاة يا رسول الله؟ فقال: «يا عقـبة أمسكِ عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»[(٥)]. وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمان خير مـال الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَفَ الجبال ومـواقع القطر يَفِرّ بدينه من الفتن» [(٦)]. خرّجه البخاري. وذكـر عليّ بن سعد عن الحسن بن

---

(١) وهذا وقت الفتنة بشروطهـا وفي حديث البخاري (٢٧٨٦) ومسلم (١٨٨٨) بالسند إلى أبي سـعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال عليه السلام لما سئل: أي الناس أفضل؟ فذكـر الجهاد ، ثم ذكر : « . . .مؤمن في شِعْب من الشعاب يعبد الله ربه ، ويدع الناس من شره » .

(٢) صحـيح بنحوه : ولفظه «الزم بيتك واملك عليك لسـانك » صححـه الألباني (٤٣٤٣) في الملاحم من سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٣) صحيح : الترمذي (٢٥٠٧) عن رجل من أصحاب رسول الله ، وجهالة الصحابي لا تضر ، وبه صححه الألباني ـ رحمه الله ـ في مـوضعه من سنن الترمذي ، وقد جـاء الحديث عند أحمد وابن ماجـة ، والبخاري في الأدب عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) ضعيف : للارسال ، وانظر مسند الشهاب (١٣٢٢) للقضاعي عن أبي أسامة رضي الله عنه .
قلت : وأحسن أحواله أن يكون موقوفاً على أبي الدرداء بلفظ « نعم صومعة الرجل بيته » .
وقد ذكر العجلونى (٢/٤٢٨) عدة شواهد له ، وذكره على الحـسن مقطوعاً وعزاه للعسكري في الأمثال بلفظ « البيوت صوامع المؤمنين » .

(٥) صحيح : الترمذي (٢٤٠٦) في الزهد وصححه الألباني هناك .

(٦) صحيح : وقد سبق في الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

واقد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلّت لأمتي العزبة والعزلة والترهّب في رؤوس الجبال» (١). وذكر أيضاً علي بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق أو حجر إلى حجر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلّت العُزْبة». قالوا: يا رسول الله، كيف تحلّ العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: «إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدي ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يعيّرونه بضيق المعيشة ويكلّفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها» (٢).

قلت: أحوال الناس في هذا الباب تختلف، فربّ رجلٍ تكون له قوّة على سكنى الكهوف والغيران في الجبال، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي اختارها الله لنبيّه ﷺ في بداية أمره، ونص عليها في كتابه مخبراً عن الفتية، فقال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾. وربّ رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم. وربّ رجلٍ متوسّط بينهما فيكون له من القوّة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن. وذكر ابن المبارك حدّثنا وهيب بن الورد قال: جاء رجل إلى وهب بن منبّه فقال: إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا وقد حدّثت نفسي ألا أخالطهم. فقال: لا تفعل إنه لا بدّ لك من الناس، ولا بدّ لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمَّ سميعاً، أعمى بصيراً، سكوتاً نَطُوقاً (٣). وقد قيل: إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشِّعاب؛ مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرّباط والذكر، ولزوم البيوت فراراً عن شرور الناس. وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم والله أعلم لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه؛ كما ذكرنا، والله الموفق وبه العصمة. وروى عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يعجب ربُّك من راعي غنم في رأس شظيّة (٤) الجبل يؤذّن بالصلاة ويصلي فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدي يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة» (٥). خرجه النسائيّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ لما فرُّوا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجأوا إلى الله

---

(١) موضوع : أورده ابن الجوزي في الموضوعات كما في الكنز (٣٠٩٧٠) من رواية ابن مسعود بلفظ قريب .

(٢) ضعيف : أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد ، والخطابي (١٠) في الزهد وانظر كنز العمال (١١/ ١٥٤) .

(٣) صحيح إلى وهيب : الزهد (١/ ٣٣٩) لابن المبارك ـ رحمه الله ـ والعزلة (ص٩٨) للخطابي ومداراة الناس (ص٤٢) لابن أبي الدنيا .

(٤) شظية : بفتح الشين وكسر الظاء : قطعة مرتفعة من الجبل ـ كما في اللسان ـ .

(٥) صحيح : أبو داود (١٢٠٣) في الصلاة ، النسائي (٢/ ٢٠) في الأذان وصححه الألباني ـ رحمه الله .

تعالى فقالوا: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي مغفرة ورزقاً. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ توفيقاً للرشاد. وقال ابن عباس: مخرجاً من الغار في سلامة وقيل صواباً. ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حَزَبَه أمر فَزِع إلى الصلاة [١].

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم. وهذه من فصيحات القرآن التي أقرّت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله. قال الزجاج: أي منعناهم عن أن يسمعوا؛ لأن النائم إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضربنا على آذانهم بالنوم؛ أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها. وقيل: المعنى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أي فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شرّ قومهم، وأنمناهم. والمعنى كلّه متقارب. وقال قطرب: هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعيّة إذا منعهم الفساد، وضرب السيد على يد عبده المأذون له في التجارة إذا منعه من التصرف. قال الأسود بن يعفر وكان ضريراً:

ومن الحوادث لا أبا لك أنني ... ضُرِبتْ عليّ الأرضُ الأسداد

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم، وقلّما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحكم نوم إلا من تعطُّل السمع. ومن ذكر الأذن في النوم قوله ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»[٢] خرّجه الصحيح. أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم، لا يقوم الليل. و﴿عَدَدًا﴾ نعت للسنين؛ أي معدودة، والقصد به العبارة عن التكثير؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرِف. والعدّ المصدر، والعدد اسم المعدود كالنَّفض والخَبَط. وقال أبو عبيدة: ﴿عَدَدًا﴾ نصب على المصدر. ثم قال قوم: بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي من بعد نومهم. ويقال لمن أُحْيِيَ أو أقيم من نومه مبعوث؛ لأنه كان ممنوعاً من الانبعاث والتصرف.

قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ﴿لِنَعْلَمَ﴾ عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته؛ وهذا على نحو كلام العرب، أي لنعلم ذلك موجوداً، وإلا فقد كان الله تعالى علم أيّ الحزبين أحصى الأمد. وقرأ الزُّهريّ «ليعلم» بالياء. والحزبان الفريقان. والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً. والحزب الثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدّة أصحاب الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين. وقيل غير

---

(١) صحيح: وقد سبق عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: البخاري (١١٤٤) في التهجد، مسلم (٧٧٤) في صلاة المسافرين وقصرها عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية. و﴿أَحْصَى﴾ فعل ماض. و﴿أَمَدًا﴾ نصب على المفعول به؛ قاله أبو عليّ. وقال الفرّاء: نصب على التمييز. وقال الزجاج: نصب على الظرف، أي أيّ الحزبين أحصى للبثهم في الأمد، والأمد الغاية. وقال مجاهد: «أمدا» معناه عددا، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب. وقال الطبري: ﴿أَمَدًا﴾ منصوب بـ﴿لَبِثُوا﴾. ابن عطية: وهذا غير متّجه، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ، و﴿أَحْصَى﴾ فعل رباعي. وقد يحتج له بأن يقال: إن أفعل في الرباعي قد كثر؛ كقولك: ما أعطاه للمال وآتاه للخير. وقال في صفة حوضه ﷺ: «ماؤه أبيض من اللبن». وقال عمر بن الخطاب: فهو لما سواها أضْيع.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ لما اقتضى قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ اختلافاً وقع في أمد الفتية، عقّب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي شباب وأحداث حكم لهم بالفتوّة حين آمنوا بلا واسطة؛ كذلك قال أهل اللسان: رأس الفتوّة الإيمان. وقال الجنيد: الفتوّة بذل النّدى وكفُّ الأذى وترك الشكوى. وقيل: الفتوّة اجتناب المحارم واستعجال المكارم. وقيل غير هذا. وهذا القول حسن جداً؛ لأنه يعمّ بالمعنى جميع ما قيل في الفتوّة.

قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي يسّرناهم للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا. وهذه زيادة على الإيمان. وقال السُّدِّي: زادهم هُدًى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافة أن ينبح عليهم وينبّه بهم؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه الله، فقال: يا قوم لِمَ تطردونني، لم ترجمونني لم تضربونني فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة؛ فزادهم الله بذلك هُدًى.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدّة عزم وقوّة صبر، أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾. ولما كان الفزع وخَوَر النفس يشبه بالتناسب الانحلال حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط؛ ومنه يقال: فلان رابط الجأش، إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها. ومنه الرّبط على قلب أمّ موسى. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] وتقدّم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أن يكون هذا وصفَ مقامهم بين يدي الملك الكافر كما تقدّم، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته.

والمعنى الثاني فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد؛ فقال أسنُّهم: إني أجد في نفسي أن ربي ربُّ السموات والأرض؛ **فقالوا** ونحن كذلك نجد في أنفسنا. فقاموا جميعاً فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾. أي لئن دعونا إلهاً غيره فقد قلنا إذا جوراً ومحالاً.

والمعنى الثالث: أن يعبّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس؛ كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجدّ.

الثانية: قال ابن عطية: تعلقت الصوفية في القيام والقول بقوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

قلت: وهذا تعلّق غير صحيح هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم؛ وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان؛ هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى. وقد تقدّم في «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ما فيه كفاية. وقال الإمام أبو بكر الطَّرسوسيّ وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد فأوّل من أحدثه أصحاب السامريّ؛ لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل[1]، على ما يأتي.

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومنا، أي أهل عصرنا وبلدنا، عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة. ﴿لَوْلَا﴾ أي هَلاّ. ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أن بحجة على عبادتهم الصنم. وقيل: ﴿عَلَيْهِم﴾ راجع إلى الآلهة؛ أي هلا أقاموا بيّنةً على الأصنام في كونها آلهة؛ فقولهم ﴿لَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

(١) وسيأتي في سورة طـــه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ قيل: هو من قول الله لهم. أي وإذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف. وقيل: هو من قول رئيسهم يمليخا؛ فيما ذكر ابن عطية. وقال الغزنويّ: رئيسهم مكسلمينا، قال لهم ذلك؛ أي إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون. ثم استثنى وقال ﴿ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ أي إنكم لم تتركوا عبادته؛ فهو استثناء منقطع. قال ابن عطية: وهذا على تقدير إن الذين فرّ أهل الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا علم لهم به، وإنما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط. وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فالاستثناء متصل؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله. وفي مصحف عبد الله بن مسعود «وما يعبدون من دون الله». قال قتادة هذا تفسيرها.

قلت: ويدل على هذا ما ذكره أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراسانيّ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ قال: كان فتية من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله.

ابن عطية: فعلى ما قال قتادة تكون ﴿إِلاَّ﴾ بمنزلة غير، و ﴿مَا﴾ من قوله ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ في موضع نصب، عطفا على الضمير في قوله ﴿اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾. ومضمّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذا فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوًى ونتكل على الله؛ فإنه سيبسط لنا رحمته، وينشرها علينا، ويهيّئ لنا من أمرنا مرفقاً. وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم. وقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه: كان أصحاب الكهف صياقلة، واسم الكهف حيوم[1]. ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها، وهو ما يرتفق به. وكذلك مرفق الإنسان ومرفقه؛ ومنهم من يجعل «المرفق» بفتح الميم وكسر الفاء من الأمر، والمرفق من الإنسان، وقد قيل: المرفق بفتح الميم الموضع كالمسجد، وهما لغتان.

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي ترى أيّها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم. والمعنى: إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا؛ لا أن المخاطب رآهم على التحقيق. و ﴿تَّزَاوَرُ﴾ تتنحّى وتميل؛ من الازورار. والزور المَيَل. والأزور في العين المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين؛ كما قال ابن أبي ربيعة:

وجنبي خيفةَ القوم أزْوَرُ

(١) ومثل هذا لا يصح من قريب أو من بعيد، والله أعلم.

ومن اللفظة قول عنترة:

فازورّ من وَقْع القَنَا بلبَانه

وفي حديث غزوة مـؤتة أن رسول الله ﷺ رأى في سرير عبـد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير جعفـر وزيد بن حارثة[1]. وقرأ أهل الحـرمين وأبو عمرو «تزاور» بإدغـام التاء في الزاي، والأصل «تتزاور»، وقرأ عـاصم وحمزة والكسـائيّ «تزاور» مخففة الـزاي. وقرأ ابن عامر «تزورّ» مـثل تحمر. وحكى الفراء «تزوارّ» مثل تحمـار؛ كلُّها بمعنًى واحد. ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: تدعهم. النحاس: وهذا معروف في اللغة، حكى البصريون أنه يقال: قرضه يقرضـه إذا تركه؛ والمعنى: أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبـتة كرامةً لهم؛ وهو قول ابن عباس. يعني أن الشمس إذا طلعت مالت عن كـهفهم ذات اليمين، أي يمين الكهف، وإذا غربت تمرّ بهم ذات الشمـال، أي شمال الكهف، فـلا تصيبهم في ابتـداء النهار ولا في آخر النهـار. وكان كهـفهم مـستقـبل بنات نعش في أرض الروم، فكانت الشمـس تميل عنهم طالعةً وغـاربة وجارية لا تبلغهم لتـؤذيهم بحرّها، وتغيّر ألوانهـم وتبلي ثيابهم. وقد قيل: إنه كـان لكهفهم حاجب مـن جهة الجنوب، وحاجب من جهـة الدبور وهم في زاويته. وذهب الزجاج إلى أن فعـل الشمس كان آية من الله، دون أن يكون باب الكهف إلى جـهة توجب ذلك. وقرأت فرقـة «يقرضهم» باليـاء من القرض وهو القطع، أي يقطعهم الكهف بظلّه من ضـوء الشمس. وقيل: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي يصيبهم يسير منها، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة، أي تعطيـهم الشمس اليسير من شعاعها. وقالوا: كان في مَسِّها لهم بالعشيّ إصلاح لأجسادهم. وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخـر يتأذّون فيه بانبساط الشمس عليهم في مـعظم النهار. وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشـمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخـر. والمقصود بيان حـفظهم عن تطرّق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليـهم، والتأذّي بحر أو برد. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي من الكهف. والفجوة المتّسع، وجمعها فجوات وفجاء؛ مثل ركوة وركاء وركوات. وقال الشاعر:

ونحن ملأنا كلّ واد وفجوة رجالاً وخيلاً غيرَ ميل ولا عُزْل

أي كـانوا بحيث يصيبـهم نسيم الـهـواء. ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ لطف بهم، وهذا يقـوّي قول الزجاج. وقال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون؛ فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً. وقيل: تحسـبهم أيقاظاً لكثرة تقلّبهم كـالمستيقظ في مضـجعه. و ﴿أَيْقَاظًا﴾ جمع يقظ ويقظان، وهو المنتبه. ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كقولـهم: وهم قـوم ركوع وسجود وقعود؛ فـوصف الجمع بالمصدر. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لئلا تأكل الأرض لحـومهم. قال أبو هريرة: كان لـهم في كل عام تقليبتان. وقيل: في كل سنة مرة. وقـال مجاهد: في كل سبع سنين مرة. وقالت فرقة: إنما قُلبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلثمائة فلا. وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل اللـه، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر اللـه، فيضاف إلى اللـه تعالى.

(١) ضعيف للإرسال: السيرة الحلبية (٣/ ٩٩) وذكره عن قتادة به، وقتادة لم يدرك زمن النبوة لأنـه تابعي.

قولـه تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم﴾ قال عمرو بن دينار: إن مما أخذ عـلى العقرب ألا تضر أحداً قال في ليلـه أو في نهاره: صلّى اللـه على نوح. وإن مما أخذ على الكلب ألا يضر من حَمَل عليه إذا قال: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد.

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقةً، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه؛ على ما قال مقاتل. واختلف في لونه اختلافاً كثيراً، ذكره الثعلبيّ. تحصيله: أيّ لون ذكرت أصبت؛ حتى قيل لون الحجر وقيل لون السـماء. واخـتلف أيضاً في اسمـه؛ فعن عليّ: ريان. ابن عـباس: قطمـير. الأوزاعي: مشير. عبد اللـه بن سلام: بسيط. كعب: صهيا. وهب: نقيا. وقيل: قطفـير؛ ذكره الثعلبي. وكان اقتناء الكلب جائزاً في وقتـهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا. وقـال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبـعة فمرّوا براع معـه كلب فاتبعهم على دينهم. وقال كـعب: مرّوا بكلب فنبح لهم فطردوه فعـاد فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجليـه ورفع يديه إلى السماء كـهيئة الداعي، فنطق فـقال: لا تخافوا مني أنا أحبّ أحبّاء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم[1].

الثانية: ورد في الصحـيح عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قـال: «من اقتنى كلباً إلا كلب صـيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان»[2]. وروي في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتخذ كلباً إلا كلب مـاشية أو صيد أو زرع انتقص من أجـره كل يوم قيراط»[3]. قال الزهري: وذكر لابن عـمر قول أبـي هريرة فقال: يرحم الله أبا هـريرة كان صاحب زرع. فـقد دلّت السنة الثابتـة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشـية. وجعل النقص في أجر من اقتـناها على غير ذلك من المنفعة؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه، أو لمنع دخول الملائكة البيت، أو لنجاسته، على ما يراه الشافعي، أو لاقتحـام النهي عن اتخاذ ما لا منفعة فيه؛ والله أعلم. وقال في إحدى الروايتـين «قيراطان» وفي الأخـرى «قيـراط». وذلك يحتـمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشـدّ أذًى من الآخر، كالأسود الذي أمـر عليه السلام بقتله، ولم يدخله في الاسـتثناء حين نهى عن قتلها كمـا هو منصوص في حديث جابر، أخرجه الصحيح. وقـال: «عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان»[4]. ويحتمل أن يكون ذلك لاختـلاف المواضع، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط. وأما المباح اتخاذه فلا ينقص؛ كالفرس والهِرّة. والله أعلم.

---

(١) وهل مثل هذا يعقـل من قريب أو من بعيد ؟ إنهم صالحـون لا أنبياء ولا دليل على ذلك ، وهو غيـر محال في قدرة الله تعالى ، ولكن لا دليل عليه .

(٢) صحيح : وقد سبق .

(٣) صحيح : البخاري (٢٣٢٢) ، في الحرث والمزارعة ، مـسلم (١٥٧٥) في المساقاة .

(٤) صحيح : مسلم (١٥٧٢) في المساقاة .

وذو النقطتين : الكائنتان فوق العين .

الثالثة: وكلب الماشية المبـاح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معهـا، لا الذي يحفظها في الدار من السّراق. وكلب الزرع هو الذي يحـفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السـراق. وقد أجاز غيـر مالك اتخاذها لسراق الماشـية والزرع. وقد تقدّم فـي «المائدة» من أحكام الكلاب ما فيه كـفاية، والحمد لله.

الرابعة: قال ابن عطية: وحدّثني أبي رضي الله عنه قال: سـمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن مَن أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم؛ كلبٌ أحبّ أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله.

قلت: إذا كان بعض الكلاب قـد نال هذه الدرجة العليا بصحبـته ومخالطتـه الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعـلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين بل في هذا تسلـية وأنس للمؤمنين المقـصّرين عن درجات الكمـال، المحبين للنبيّ ﷺ وآله خير آل. روى الصحـيح عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المـسجد فلقينا رجل عند سدّة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددتَ لها» قال: فكأنّ الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحبّ الله ورسوله. قال: «فـأنت مع من أحببت»[1]. في رواية قال أنس بن مالك: فـما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبيّ ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم[2].

قلت: وهذا الذي تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كلّ ذي نفس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحـمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلبٌ أحب قومـاً فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقـد الإيمان وكلمة الإسلام، وحبّ النبيّ ﷺ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقالت فرقة[3]: لم يكن كلباً حقـيقة، وإنما كان أحدهـم، وكان قد قعد عند باب الغـار طليعةً لهم؛ . . . كمـا سمي النجم التـابع للجوزاء كلباً؛ لأنه منهـا كالكلب من الإنسـان؛ ويقال له: كلب الجبّار. قال ابن عطيـة: فسمّي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أما إنّ هذا القول يضـعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العـرف من صفة الكلب حقـيقة؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: «ولا يبسط أحـدكم ذراعيه انبساط الكلب»[4]. وقد حكى أبو عـمر المطرّز في كتاب اليـواقيت أنه قرىء «وكالبهـم باسط ذراعيه بالوصيد». فـيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على مـا روى؛ إذ بسط الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الريبة المستخفي بنفـسه. ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب. وقرأ جعفر

---

(١) صحيح: البخاري (٣٦٨٨) في فضائل الصحابة، مسلم (٢٦٣٩) في البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: انظر السابق.

(٣) وهذا ردّه الحافظ ابن حجر (٦/ ٥٠٥) في فتح الباري والجبار: هو الجوزاء.

(٤) صحيح: وقد سبق.

قوله تعالى: ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضيّ؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب. والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى. ثم قيل: بسط ذراعيه لطول المدّة. وقيل: نام الكلب، وكان ذلك من الآيات. وقيل: نام مفتوح العين. والوصيد: الفناء؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير، أي فناء الكهف، والجمع وصائد ووصد. وقيل: الباب. وقاله ابن عباس أيضاً. وأنشد:

بأرض فضاءٍ لا يُسَدّ وصِيدُها عليّ ومعروفي بها غير منكر

وقد تقدّم. وقال عطاء: عتبة الباب، والباب الموصد هو المغلق. وقد أوصدت الباب وآصدته أي أغلقته. والوصيد: النبات المتقارب الأصول، فهو مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو. والأعمش ويحيى بن وثّاب بضمها. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي لو أشرفت عليهم لهربت منهم. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لما حفهم الله تعالى من الرُّعب واكتنفهم من الهيبة. وقيل: لوحشة مكانهم؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوحش في الظاهر لينفر الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد منهم على الدنوّ إليهم. وقيل: الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم؛ وذكره المهدويّ والنحاس والزجاج والقشيري. وهذا بعيد؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض: لبثنا يوماً أو بعض يوم. ودلّ هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها؛ إلا أن يقال: إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبل لهم ثوب ولم تغيّر صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم. وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة «لَمُلِّئْتَ منهم» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أي ملئت ثم ملئت. وقرأ الباقون «لملئت» بالتخفيف، والتخفيف أشهر في اللغة. وقد جاء التثقيل في قول المخبّل السعديّ:

وإذ فَتَكَ النُّعمان بالناس مُحْرِماً فملِّئ من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور «رُعْباً» بإسكان العين. وقرأ بضمها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما لغتان. و﴿فِرَارًا﴾ نصب على الحال و﴿رُعْبًا﴾ مفعول ثان أو تمييز.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ البعث: التحريك عن سكون. والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلّبناهم بعثناهم أيضاً؛ أي أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالهم. قال الشاعر:

وفتْيَانِ صِدْقٍ قد بَعثْتُ بسُحْرَةٍ فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونَشْوان

أي أيقظت. واللام في قوله ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ لام الصيرورة وهي لام العاقبة؛ كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فبعثُهم لم يكن لأجل تساؤلهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنهم دخلوه غُدوةً وبعثهم الله في آخر النهار؛ فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا: الله أعلم بالمدّة.

قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قال ابن عباس: كانت ورقهم كأخفاف الرُّبع؛ ذكره النحاس. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائيّ وحفص عن عاصم «بورقكم» بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم «بورْقكم» بسكون الراء، حذفوا الكسرة لثقلها، وهما لغتان. وقرأ الزجاج «بوِرْقكم» بكسر الواو وسكون الراء. ويروى أنهم انتبهوا جياعاً، وأن المبعوث هو تمليخا، كان أصغرهم؛ فيما ذكر الغزنويّ. والمدينة: أفْسُوس ويقال هي طَرسوس، وكان اسمها في الجاهلية أفسوس؛ فلما جاء الإسلام سمّوها طرسوس. وقال ابن عباس: كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ قال ابن عباس: أحلّ ذبيحةً؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم. ابن عباس: كان عامتهم مجوساً. وقيل: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أكثر بركة. قيل: إنهم أمروه أن يشتري ما يُظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطلّع عليهم، ثم إذا طبخ كفى جماعة؛ ولهذا قيل ذلك الطعام الأرز. وقيل: كان زبيباً. وقيل تمراً؛ فالله أعلم. وقيل: ﴿أَزْكَىٰ﴾ أطيب. وقيل: أرخص. ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي بقُوت. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي في دخول المدينة وشراء الطعام. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي لا يخبرنّ. وقيل: إن ظُهر عليه فلا يوقعنّ إخوانه فيما وقع فيه. ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجاج: معناه بالحجارة، وهو أخبث القتل. وقيل: يرموكم بالسب والشتم؛ والأول أصح، لأنه كان عازماً على قتلهم كما تقدّم في قصصهم. والرجم فيما سلف هي كانت على ما ذكر قبله عقوبة مخالفة دين الناس إذ هي أشفى لجملة أهل ذلك الدِّين من حيث إنهم يشتركون فيها.

الثالثة: في هذه البعثة بالورق دليل على الوكالة وصحتها. وقد وكّل عليّ بن أبي طالب أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنه؛ ولا خلاف فيها في الجملة. والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام؛ ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عوف كيف وكّل أميّة بن خلف بأهله وحاشيته بمكة؛ أي يحفظهم، وأمية مشرك، والتزم عبد الرحمن لأمية من حفظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك مجازاةً لصنعه. روى البخاريّ عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة؛ فلما ذكرت الرحمن؛ قال: لا أعرف الرحمن كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عبد عمرو... وذكر الحديث[1]. قال الأصمعي: صاغية الرجل الذين يميلون

(١) صحيح: البخاري (٢٣٠١) في الوكالة.

إليه ويأتونه؛ وهو مأخوذ من صغا يصغو ويصغَى إذا مال، وكّل مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى؛ من كتاب الأفعال.

الرابعة: الوكالة عقدُ نيابة، أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة في ذلك، إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترفّه فيستنيب من يريحه.

وقد استدل علماؤنا على صحتها بآيات من الكتاب، منها هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠] وقوله: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾. وأما من السنة فأحاديث كثيرة؛ منها حديث عروة البارقيّ، وقد تقدّم في آخر الأنعام[1]. روى جابر بن عبد الله قال: أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله ﷺ فقلت له: إني أردت الخروج إلى خيبر؛ فقال: «إذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وَسْقاً فإن ابتغى منك آيةً فضع يدك على تَرْقُوته»[2]خرجه أبو داود. والأحاديث كثيرة في المعنى، وفي إجماع الأمة على جوازها كفاية.

الخامسة: الوكالة جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه، فلو وكل الغاصبُ لم يجز، وكان هو الوكيل؛ لأن كل محرَّم فعله لا تجوز النيابة فيه.

السادسة: في هذه الآية نكتة بديعة، وهي أن الوكالة إنما كانت مع التَّقيّة خوف أن يشعر بهم أحد لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم. وجواز توكيل ذوي العذر متفق عليه؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها. وقال أبو حنيفة وسحنون: لا تجوز. قال ابن العربي: وكأن سحنون تلقّفه من أسد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافاً منهم وإذلالاً لهم، وهو الحق؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل.

قلت: هذا حسن؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحّاء. والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبيّ ﷺ سِنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال: «أعطوه» فطلبوا له سنّه فلم يجدوا إلا سنّا فوقها؛ فقال: «أعطوه» فقال: أوفَيْتَني أوْفَى الله لك. قال النبيّ ﷺ: «إن خيركم أحسنُكم قضاء»[3]. لفظ البخاري. فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن؛ فإن النبيّ ﷺ أمر أصحابه أن يعطوا عنه السنّ التي كانت عليه؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك، ولم يكن النبيّ ﷺ مريضاً ولا مسافراً. وهذا يرد قول أبي حنيفة وسحنون في قولهما: إنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه؛ وهذا الحديث خلاف قولهما.

السابعة: قال ابن خُوَيْزِ منداد: تضمنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم. وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بعثوا من وكّلوه بالشراء. وتضمت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم

---

(١) راجع الآية (١٦٤) من سورة الأنعام.

(٢) ضعيف: أبو داود (٣٦٣٢) في الوكالة وترقوته: الترقوة: العظم بين ثغرة النحر والعاتق ـ كما في النهاية ـ (١/ ١٨٧) لابن الأثر.

(٣) صحيح: البخاري وقد سبق.

معا، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من الآخر؛ ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢] حسبما تقدم بيانه في «البقرة». ولهذا قال أصحابنا في المسكين يتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغنيّ ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد قالوا في المضارب يخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد كان رسول الله ﷺ وكلّ من اشترى له أضحية (١). قال ابن العربي: ليس في الآية دليل على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفرداً فلا يكون فيه اشتراك. ولا معوَّل في هذه المسألة إلا على حديثين:

أحدهما: أن ابن عمر مرّ بقوم يأكلون تمراً فقال: نهى رسول الله ﷺ عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه(٢).

الثانية: حديث أبي عبيدة في جيش الخبط(٣). وهذا دون الأول في الظهور؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافاً من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه.

قلت: ومما يدل على خلاف هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وقوله ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ [النور: ١٦] على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أطلعنا عليهم وأظهرناهم. و ﴿ أَعْثَرْ ﴾ تعدية عثر بالهمزة، وأصل العثار في القدم. ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ يعني الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم. وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون وملك أهل تلك الدار رجلٌ صالح، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: تبعث الروح والجسد جميعاً؛ فكبر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبيّن أمره لهم، حتى لبس المسوح(٤) وقعد على الرمّاد وتضرّع إلى الله تعالى في حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف؛ فيقال: إنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها استنكر شخصه واستنكرت دراهمه لبعد العهد، فحمل إلى الملك

---

(١) صحيح: البخاري (٣٦٤٢) في المناقب عن عروة البارقي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: البخاري (٥٤٤٦) في الأطعمة، مسلم (٢٠٤٥) في الأشربة.

والقران هو: أن يجمع الرجل بين التمرتين في الأكل، وإنما نهى عنه لأن فيه شرهاً وذلك يزري بصاحبه، أو لأن فيه غبنا برفيقه. النهاية (٤/ ٥٢).

(٣) صحيح: البخاري (٤٣٦١) في المغازي، مسلم (١٩٣٥) في الصيد.

والخبط: ورق الشجر لا نوع السمك.

أما الاسم الثاني لهذه الغزوة فهو العنبر وهي دابة من أنواع الحوت. والحديث عن جابر رضي الله عنه.

(٤) المسوح: لباس الرهبان.

وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما نظر إليه قال: لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك، فقد كنت أدعو الله أن يرينيهم، وسأل الفتى فأخبره؛ فسرّ الملك بذلك قال: لعل الله قد بعث لكم آية، فلنسر إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم، فلما دنوا إلى الكهف قال تمليخا: أنا أدخل عليهم لئلا يرعبوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمة إسلام، فروي أنهم سرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم. وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدّثهم تمليخا ميتة الحق، على ما يأتي. ورجع من كان شكّ في بعث الأجساد إلى اليقين. فهذا معنى ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾. ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾. وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك: ابنوا عليهم بنياناً؛ فقال الذين هم على دين الفتية: اتخذوا عليهم مسجداً. وروي أن طائفة كافرة قالت: نبني بيعة أو مضيفاً، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذن عليهم مسجداً. وروي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيّبين. وروي عن عبد الله بن عمر أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذٍ أثرهم وحجبهم عنهم، فلذلك دعا الملك إلى بناء البنيان ليكون مَعْلَماً لهم. وقيل: إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب فأتاه آتٍ منهم في المنام فقال: أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل؛ فإنا من التراب خلقنا وإليه نعود، فدعنا[1].

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمّنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذيّ عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج[2]. قال الترمذيّ: وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن. وروى الصحيحان عن عائشة: أن أم حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة»[3]. لفظ مسلم. قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتّخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد. وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنويّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»[4] لفظ مسلم. أي لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذّر النبيّ ﷺ عن مثل ذلك، وسَدَّ الذرائع المؤدّية إلى ذلك فقال: «اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»[5]. وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا: لما نزل

---

(١) هذه الروايات لا تجوز كما سبق .

(٢) ضعيف : أبو داود (٣٢٣٦) في الجنائز ، الترمذي (٣٢٠) في الجنائز وابن ماجة (١٥٧٦) الجنائز وضعفه الألباني هناك .

(٣) صحيح : البخاري (٤٢٧) في الصلاة ، مسلم (٥٢٨) في المساجد .

(٤) صحيح : وقد سبق .

(٥) صحيح : وقد سبق .

برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه فإذا اغتمّ بهـا كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذّر ما صنعوا[١]. وروى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه[٢]. وخرّجه أبو داود والترمذي أيضاً عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تجصّص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ[٣]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروى الصحيح عن أبي الهيّاج الأسدي قال: قال لي عليّ بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألاّ تَدَعَ تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مُشرفاً إلا سوّيته في رواية ولا صورة إلا طمستها[٤]. وأخرجه أبو داود والترمذيّ. قال علماؤنا: ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة. وقد قال به بعض أهل العلم. وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم، وذلك صفة قبر نبينا محمد ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله عنهما على ما ذكر مالك في الموطأ[٥] وقبر أبينا آدم ﷺ؛ على ما رواه الدارقطني[٦] من حديث ابن عباس. وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيماً وتعظيماً فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبُّهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها. وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال: هو حرام. والتسنيم في القبر: ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سنام البعير. ويُرَشّ عليه بالماء لئلا ينتثر بالريح. وقال الشافعيّ لا بأس أن يطيّن القبر. وقال أبو حنيفة: لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء فيسقط. ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال: حدّثنا مسدّد حدّثنا نوح بن دُرّاج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلّمته بصخرة[٧]؛ ذكره أبو عمر.

وأما الجائزة: فالدفن في التابوت؛ وهو جائز لا سيما في الأرض الرّخْوة. وروي أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقي في ركيّة[٨] مخافة أن يعبد، وبقي كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام. وفي الصحيح عن سعد بن أبي وقّاص: أنه قال في مرضه الذي هلك فيه: اتخذوا لي لَحْداً وانصبوا عليّ اللّبن نَصْباً؛ كما صنع

---

(١) صحيح: البخاري (٤٣٥) في الصلاة، مسلم (٥٣١) في المساجد عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم. واغتم: احتبس نفسه عن الخروج كما في النهاية (٣/ ٨٨).

(٢) صحيح: مسلم (٩٧٠) في الجنائز والتجصيص: الطلاء بالجص وهو الجير.

(٣) صحيح: السابق، والترمذي (١٠٥٢) في الجنائز وصححه الألباني هناك.

(٤) صحيح: مسلم (٩٦٩) في الجنائز.

(٥) وذكره البخاري (١٣٩٠) إلى سفيان التمار.

(٦) ضعيف جداً: الدارقطني (٢/ ٧٠) موقوفاً عن ابن عباس وفيه: عبد الرحمن بن مالك بن مغول وهو متروك.

(٧) هذا باطل: فيه نوح بن دراج: متروك، ثم هناك انقطاع بين جعفر الصادق المولود سنة (٨٠هـ) وبين فاطمة الزهراء رضي الله عنها المتوفاة (١١هـ).

(٨) أي في بئر.

برسول الله ﷺ[١] . اللحد: هو أن يشقّ في الأرض ثم يحفر قبر آخر في جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صلبة يدخل فيه الميت ويسدّ عليه باللّبن. وهو أفضل عندنا من الشق؛ لأنه الذي اختاره الله تعالى لرسوله ﷺ. وبه قال أبو حنيفة قال: السنة اللحد. وقال الشافعي: الشق. ويكره الآجر في اللحد. وقال الشافعي: لا بأس به لأنه نوع من الحجر. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأن الآجر لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبلى، فلا يليق به الإحكام. وعلى هذا يسوّى بين الحجر والآجر. وقيل: إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلاً؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والآجر. قالوا: ويستحب اللّبن والقَصَب لما روي أنه وضع على قبر النبيّ ﷺ حزمة من قصب. وحكي عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن الفضل الحنفيّ رحمه الله أنه جوّز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض. وقال: لو اتخذ تابوت من حديد فلا بأس به؛ لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطيّن الطبقة العليا مما يلي الميت، ويجعل اللّبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد.

قلت: ومن هذا المعنى جعل القطيفة في قبر النبيّ ﷺ؛ فإن المدينة سبخة[٢]، قال شُقْران[٣]: أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ في القبر[٤]: قال أبو عيسى الترمذي: حديث شقران حديث حسن صحيح غريب.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير في ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ يراد به أهل التوراة ومعاصري محمد ﷺ. وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص. وقيل: المراد به النصارى؛ فإن قوماً منهم حضروا النبيّ ﷺ من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبيّة: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقالت النسطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة ثامنهم كلبهم. وقيل: هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبيّ ﷺ عن أصحاب الكهف. والواو في قوله: ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ طريق النحويين أنها واو عطف دخلت في آخر إخبار عن عددهم؛ لتفصّل أمرهم، وتدلّ على أن هذا غاية ما قيل ولو سقطت لصح الكلام. وقالت فرقة منها ابن خالويه: هي واو الثمانية. وحكى الثعلبيّ عن أبي بكر بن عيّاش أن قريشاً كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية؛ فتدخل الواو في الثمانية. وحكى نحوه القفّال،

---

(١) **صحيح** : مسلم (٩٦٦) في الجنائز .

(٢) السبخة : أرض ذات ملح ، ونز . راجع : لسان العرب مادة (سبخ) .

(٣) شقران ـ بضم أوله وسكون القاف ـ مولى رسول الله ﷺ . قيل اسمه صالح . شهدا بدراً وهو مملوك ثم عتق . قال ابن حجر ـ رحمه الله : أظنه مات في خلافة عثمان رضي الله عنه . راجع : تقريب التهذيب ١/ ٣٥٤ .

(٤) **صحيح** : الترمذي (١٠٤٧) في الجنائز ، قلت : وهناك عند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

فقال: إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] يدلّ عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بالواو. وقال ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ ثم قال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكُّم، ومن أين السبعة نهاية عندهم ثم هو منقوض بقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ ولم يذكر الاسم الثامن بالواو. وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة: إنما ذكر الواو في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ لينبّه على أن هذا العدد هو الحق، وأنه مباين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء؛ فكأنه قال لنبيّه هم سبعة وثامنهم كلبهم. والرجم: القول بالظن؛ يقال لكل ما يُخرص: رجم فيه ومرجوم ومرجم؛ كما قال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم

قلت: قد ذكر الماوردي والغزنوي: وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي صاحب كلبهم. وهذا مما يقوّي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا. وقال القشيريّ: لم يذكر الواو في قوله: رابعهم سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزاً، فطلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلّف بعيد، وهو كقوله في موضع آخر ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]. وفي موضع آخر: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام في هذه الآية أن يردّ علم عدّتهم إليه عز وجل. ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل. والمراد به قوم من أهل الكتاب؛ في قول عطاء. وكان ابن عباس يقول: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم[1]، ثم ذكر السبعة بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير كلب أعمر، فوق القَلَطيّ [2] ودون الكرديّ. وقال محمد بن سعيد بن المسيّب: هو كلب صيني. والصحيح أنه زبيري. وقال: ما بقي بنيسابور محدّث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يقدر له. قال: وكتبه أبو عمرو الحيريّ عني[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك؛ وهو ردّ علم عدتهم إلى الله تعالى. وقيل: معنى المراء الظاهر أن تقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتج على أمر مقدّر في ذلك. وفي هذا دليل على أن الله تعالى لم يبيّن لأحد عددهم فلهذا قال ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢] أي ذاهباً؛ كما قال:

وتلك شكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

---

(١) ضعيف: للانقطاع بين عطاء الخراساني وابن عباس رضي الله عنهما كذلك رواه الطبري (١٥/٢٢٧) في تفسيره.

(٢) القلطي: في اللسان: القصير جداً.

(٣) وفيه محمد بن سعيد بن المسيب وهو مجهول لم يوثقه غير ابن حبان، وهو مقبول إلا أن يتابع كما في التقريب.

ولم يبح له في هذه الآية أن يماري؛ ولكن قوله: ﴿إِلَّا مِرَاءً﴾ استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب: سميت مراجعته لهم مراء ثم قيد بأنه ظاهر؛ ففارق المراء الحقيقي المذموم. والضمير في قوله: ﴿فِيهِمْ﴾ عائد على أهل الكهف. وفي قوله «منهم» عائد على أهل الكتاب المعارضين. وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني في عدتهم؛ وحذفت العدّة لدلالة ظاهر القول عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ روي أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فنهي عن السؤال. وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيّه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذي القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم؛ ولم يستثن في ذلك. فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شقّ ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرّجة[1]. وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غدا كذا وكذا، إلاّ أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محقّقاً لحكم الخبر؛ فإنه إذا قال: لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محقّقاً للمخبر عنه. واللام في قوله ﴿لِشَيْءٍ﴾ بمنزلة في، أو كأنه قال لأجل شيء.

الثانية: قال ابن عطية: وتكلّم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الأيمان وإنما هي في سُنّة الاستثناء في غير اليمين. وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسّنه الإيجاز؛ تقديره: إلا أن تقول إلا أن يشاء الله؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله. فالمعنى: إلا أن تذكر مشيئة الله؛ فليس ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ من القول الذي نُهي عنه.

قلت: ما اختاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائيّ والفرّاء والأخفش. وقال البصريون: المعنى إلا بمشيئة الله. فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله. قال ابن عطية: وقالت فرقة ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ قال: وهذا قول حكاه الطبري وردّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكَى. وقد تقدّم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في «المائدة».

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾

فيه مسألة واحدة، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان واختلف في الذكر المأمور به؛ فقيل: هو قوله:

---

(١) وقد سبق بسند ضعيف.

﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ . قال محمد الكوفي المفسر: إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص. وقيل: هو قوله : ﴿ إن شاء الله﴾ الذي كان نسيه عند يمينه. حكي عن ابن عباس أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفاً. وهو قول مجاهد. وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال: يستثني إذا ذكره. الحسن: ما دام في مجلس الذكر. ابن عباس: سنتين؛ ذكره الغزنويّ قال: فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخلّص عن الإثم. فأما الاستثناء المفيد حكماً فلا يصح إلا متصلاً. السُّدّي: أي كل صلاة نسيها إذا ذكرها. وقيل: استثن باسمه لئلا تنسى. وقيل اذكره متى ما نسيته. وقيل: إذا نسيت شيئاً فاذكره يذكّركه. وقيل: اذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك؛ فذلك حقيقة الذكر. وهذه الآية مخاطبة للنبيّ ﷺ ، وهي استفتاح كلام على الأصح، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء، وهي بعد تعمّ جميع أمته؛ لأنه حكم يتردّد في الناس لكثرة وقوعه. والله الموفق.

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدّة لبثهم. وفي قراءة ابن مسعود «وقالوا لبثوا». قال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدّة النبيّ ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيّه أن هذه المدّة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يردّ علم ذلك إليه. قال ابن عطية: فقوله على هذا ﴿لَبِثُوا ﴾ الأول يريد في نوم الكهف، و﴿لَبِثُوا﴾ الثاني يريد بعد الإعثار إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء. مجاهد: إلى وقت نزول القرآن. الضحاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام. واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمة. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى بيسير وقد بقيت من الحواريين بقية. وقيل غير هذا على ما يأتي. قال القشيريّ: لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين؛ كما تقول: عندي مائة درهم وخمسة؛ والمفهوم منه خمسة دراهم. وقال أبو علي ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ أي ازدادوا لبث تسع؛ فحذف. وقال الضحاك: لما نزلت ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿سِنِينَ﴾. وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبيّ العربي ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين. ونحوه ذكر الغزنوي. أي باختلاف سني الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين. وقرأ الجمهور «ثلثمائة سنين» بتنوين مائة ونصب سنين، على التقديم والتأخير؛ أي سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون ﴿سِنِينَ﴾ على هذا بدلاً أو عطف بيان. وقيل: على التفسير والتمييز. و﴿سِنِينَ﴾ في موضع سنة. وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين، وترك

التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد. قال أبو عليّ: هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع. وفي مصحف عبد الله «ثلثمائة سنة». وقرأ الضحاك «ثلثمائة سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو بخلاف «تسعاً» بفتح التاء وقرأ الجمهور بكسرها. وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: التقدير ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد. أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك. أو إلى وقت تغيّرهم بالبِلَى؛ على ما تقدم. وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصاناً. أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علّمه ذلك ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره وأسمعه. قال قتادة: لا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وهذه عبارات عن الإدراك. ويحتمل أن يكون المعنى ﴿أَبْصِرْ بِهِ﴾ أي بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحقّ من الأمور، وأسمع به العالم؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب. وقيل: المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم. ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي لم يكن لأصحاب الكهف وليّ يتولّى حفظهم دون الله. ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿لَهُم﴾على معاصري محمد ﷺ من الكفار. والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدة لبثهم وليّ دون الله يتولى تدبير أمرهم؛ فكيف يكونون أعلم منه، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إيّاهم.

قوله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ قرئ بالياء ورفع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى. وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والحجدريّ «ولا تشرك» بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبيّ ﷺ، ويكون قوله «ولا تشرك» عطفا على قوله﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾. وقرأ مجاهد «يشرك» بالياء من تحت والجزم. قال يعقوب: لا أعرف وجهه.

مسألة: اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة، فروي عن ابن عباس أنه مرّ بالشأم في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاماً فقالوا: هذه عظام أهل الكهف. فقال لهم ابن عباس: أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدّة طويلة؛ فسمعه راهب فقال: ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا؛ فقيل له: هذا ابن عم نبيّنا ﷺ. وروت فرقة أن النبيّ ﷺ قال: «ليحجنّ عيسى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجّوا بعد»(١). ذكره ابن عطية.

قلت: ومكتوب في التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبدُ الله ورسوله، وأنه يمر بالروحاء حاجّاً أو معتمراً أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف والرقيم، فيمرّون حجاجاً

(١) ضعيف منكر : ابن عدي (٦/ ٥٧٠) في الكامل عن عوف المزني .

فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا. وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في كتاب «التذكرة». فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة، بل يموتون قبيل الساعة.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ قيل: هو من تمام قصة أصحاب الكهف؛ أي اتبع القرآن فلا مبدّل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف. وقال الطبري: لا مغيّر لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه. ﴿ وَلَنْ تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته. ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملجأ. وقيل موئلاً. وأصله الميل؛ ومن لجأت إليه فقد ملْت إليه. قال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم: وهذا آخر قصة أصحاب الكهف. ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فانتهى إلى الكهف الذي فيه أصحاب الكهف؛ فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم؛ فقال ابن عباس: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك، فقال: ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ فقال: لا انتهي حتى أعلم علمهم، وبعث قوماً لذلك، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم؛ ذكره الثعلبي أيضاً. وذكر أن النبيّ ﷺ سأل الله أن يريه إياهم، فقال إنك لن تراهم في دار الدنيا ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان، فقال النبيّ ﷺ لجبريل عليه السلام: كيف أبعثهم؟ فقال: أبسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع عليّ بن أبي طالب، ثم ادع الريح الرُخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف، فقلعوا منه حجراً، فحمل الكلب عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ برأسه أن ادخلوا فدخلوا الكهف فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فردّ الله على الفتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته؛ فقالوا لهم: معشر الفتية، إن النبيّ محمد بن عبد الله ﷺ يقرأ عليكم السلام؛ فقالوا: وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض، وعليكم بما أبلغتم، وقبلوا دينه وأسلموا، ثم قالوا: أقرئوا محمداً رسول الله منّا السلام، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي. فيقال: إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما كان منهم، ثم ردّتهم الريح فقال النبيّ ﷺ: «كيف وجدتموهم»؟ فأخبروه الخبر، فقال النبيّ ﷺ: «اللهم لا تفرّق بيني وبين أصحابي وأصهاري واغفر لمن أحبّني وأحبّ أهل بيتي وخاصّتي وأصحابي»(١). وقيل: إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح؛ فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بعثوا في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة؛ ولهذا سألت اليهود رسول الله ﷺ. وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان.

(١) والله إنه لهو الهراء بعينه، وكان واجباً على القرطبي ـ رحمه الله ـ ألا يسود صفحة كتابه بهذه الأباطيل التي تقطر كذبا ونكارة، ولا تساوي المداد الذي كتبت به والله أعلم.

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ هذا مثل قوله ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ في سورة «الأنعام» وقد مضى الكلام فيه. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: جاءت المؤلّفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن حِصْن والأقرع بن حابس فقالوا: يا رسول الله؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيّت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذرّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ . يتهددهم بالنار. فقام النبيّ ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات»[1]. ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي طاعته. وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن «ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغدوة والعشيّ» وحجتهم أنها في السواد بالواو. وقال أبو جعفر النحاس: وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة. وروي عن الحسن «ولا تعدّ عينيك عنهم» أي لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلباً لزينتها؛ حكاه اليزيدي. وقيل: لا تحتقرهم عيناك؛ كما يقال فلان تنبو عنه العين؛ أي مستحقراً.

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي تتزيّن بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يرد النبيّ ﷺ أن يفعل ذلك، ولكنّ الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]. وإن كان الله أعاذه من الشرك. و﴿ تُرِيدُ ﴾ فعل مضارع في موضع الحال؛ أي لا تعد عيناك مريداً؛ كقول امرىء القيس:

فقلتُ له لا تبْكِ عَيْنُك إنما ... نحاول مُلْكاً أو نموتَ فنُعْذَرَا

وزعم بعضهم أن حق الكلام: لا تعد عينيك عنهم؛ لأن «تعد» متعدّ بنفسه. قيل له: والذي وردت به التلاوة من رفع العينين يؤول إلى معنى النصب فيهما، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو في الحقيقة موجّه إلى النبيّ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾ فأسند الإعجاب إلى الأموال، والمعنى: لا تعجبك يا محمد أموالهم. ويزيدك وضوحاً قول الزجاج: إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله

---

(١) ضعيف جداً: الواحدي ص ٢٥٠ وفي إسناده: سليمان بن عطاء الحراني، وهو تالف كما في مجروحين ابن حبان (١/ ٣٢٥) وانظر الحلية (١/ ٣٤٥) لأبي نعيم والبيهقي (١٠٤٩٤) في شعب الإيمان.

تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ قال: نزلت في أميّة بن خلف الجُمَحِيّ، وذلك أنه دعا النبيّ ﷺ إلى أمر كرهه من تجرّد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾[1] يعني من ختمنا على قلبه عن التوحيد. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يعني الشرك. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قيل هو من التفريط الذي هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحدّ، وكان القوم قالوا: نحن أشراف مُضَرَ إن أسلمنا أسلم الناس؛ وكان هذا من التكبر والإفراط في القول. وقيل: ﴿فُرُطًا﴾ أي قدماً في الشر؛ من قولهم: فَرَط منه أمر أي سبق. وقيل: معنى ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ وجدناه غافلاً؛ كما تقول: لقيت فلاناً فأحمدته؛ أي وجدته محموداً. وقال عمرو ابن معد يكرب لبني الحارث بن كعب: والله لقد سألناكم فما أبخلناكم وقاتلناكم فما أجبناكم، وهاجيناكم فما أفحمناكم؛ أي ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مفحمين. وقيل: نزلت ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ في عيينة بن حصن الفزاري[2]؛ ذكره عبد الرزاق، وحكاه النحاس عن سفيان الثوري. والله أعلم.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ﴿الْحَقُّ﴾ رفع على خبر الابتداء المضمر؛ أي قل هو الحق. وقيل: هو رفع على الابتداء، وخبره في قوله ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾. ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدي من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر، ليس إليّ من ذلك شيء، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً، ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً، ولست بطارد المؤمنين لهواكم؛ فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا. وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد. أي إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا. ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أي للكافرين الجاحدين. ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال الجوهري: السُّرادق واحد السُّرادقات التي تمدّ فوق صحن الدار. وكل بيت من كرسف[3] فهو سرادق. قال رؤبة:

يا حَكَمُ بنَ المنذر بن الجارُودْ سُرادقُ المجد عليك مَمْدُودْ

يقال: بيت مُسردَق. وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة:

هو المُدخِل النعمانَ بيتاً سماؤه صُدورُ الفيول بعد بَيت مَسَرْدَقِ

وقال ابن الأعرابي: ﴿سُرَادِقُهَا﴾ سورها. وعن ابن عباس: حائط من نار. الكلبي: عنق تخرج

---

(١) واه: فيه جويبر عن الضحاك وجويبر تالف، والضحاك لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: ابن ماجة (٤١٢٧) في الزهد وصححه الألباني هناك. ضمن حديث طويل عن خباب رضي الله عنه.

(٣) كرسف: قطن.

من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة. القتبيّ: السرادق الحجزة التي تكون حول الفسطاط. وقاله ابن عزيز. وقيل: هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة «والمرسلات» حيث يقول: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ قاله قتادة. وقيل: إنه البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم» ثم تلا ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ثم قال: «والله لا أدخلها أبداً ما دمت حيا ولا يصيبني منها قطرة»(١) ذكره الماورديّ. وخرج ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ قال: «لسرادق النار أربع جدر كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة»(٢). وخرجه أبو عيسى الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب.

قلت: وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجُدُره ما وُصف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ قال ابن عباس: المُهْل ماء غليظ مثل دُرْدِيّ (٣) الزيت. مجاهد: القَيْح والدّم. الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سُود. وقال أبو عبيدة: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورَصاص ونُحاس وقَزْدير، فتموج بالغليان، فذلك المهل. ونحوه عن ابن مسعود. قال سعيد بن جُبير: هو الذي قد انتهى حَره. وقال: المهل ضرب من القَطِران؛ يقال: مَهلت البعير فهو ممهول. وقيل: هو السم. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وفي الترمذي عن النبيّ ﷺ في قوله ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قال: «كعكَر الزيت فإذا قرّبه إلى وجهه سقطت فَرْوة وجهه»(٤) قال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْدين بن سعد ورِشْدين قد تُكُلِّم فيه من قبل حفظه. وخرج عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ﴾ قال: «يقرّب إلى فيه فيكرهه فإذا أدْنِيَ منه شوَى وجهه ووقعت فَروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره». يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] يقول ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(٥)؛ قال: حديث غريب.

قلت: وهذا يدل على صحة تلك الأقوال، وأنها مرادة، والله أعلم. وكذلك نص عليها أهل اللغة. في الصحاح ﴿كَالْمُهْلِ﴾ النحاس المُذاب. ابن الأعرابي: المهل المذاب من الرصاص. وقال أبو عمرو: المهل دردِيّ الزيت. والمهل أيضاً القيح والصديد. وفي حديث أبي بكر: ادفنوني في ثَوْبَيّ هذين فإنهما للمهل والتراب(٦). و ﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال مجاهد: معناه مجتمعاً؛ كأنه ذهب إلى معنى

---

(١) ضعيف: أحمد (٤/ ٢٢٣) في المسند وضعفه المحقق هناك.

(٢) ضعيف: الترمذي (٢٥٨٤) في صفة جهنم وضعفه الألباني هناك و(كُثف) جمع كثرة لـ(كثيف) وهو: الثخين الغليظ كما في النهاية (٤/ ١٥٣).

(٣) الدُّردي: بضم الدال ـ كما في النهاية (٢/ ١١٢) لابن الأثير: ما يركد في أسفل كل مائع (كالزيت) كالأشربة والأدهان.

(٤) ضعيف: الترمذي (٢٥٨١) وضعفه الألباني هناك.

(٥) ضعيف: الترمذي (٢٥٨٣) في صفة جهنم وضعفه الألباني هناك.

(٦) صحيح: البخاري (١٣٨٧) في الجنائز عن عائشة رضي الله عنها ولفظه (للمهلة) لا (المهل).

المرافقـة. ابن عباس: منزلاً. عطاء: مـقراً. وقيل مهـاداً. وقال القتَبـيّ: مجلساً. والمعنى متـقارب؛ وأصله من المتّكأ، يقال منه: ارتفقت أي اتكأت على المرفق. قال الشاعر:

قالت له وارتفقتْ ألاَ فتًى يسوق بالقوم غَزالات الضُّحا

ويقال: ارتفق الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نوم. قال أبو ذُؤيب الهُذَليّ:

نام الخَليّ وبِتُّ الليل مُرْتَفِقا كأنّ عَيْنِيَ فيها الصّاب مَذبُوحُ

الصاب: عصارة شجر مرّ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝ ﴾

لما ذكر ما أعدّ للكافرين من الهوان ذكر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب. وفي الكلام إضمار؛ أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله مُحْبطَ. و﴿عَمَلاً﴾ نصب على التمييز، وإن شئت بإيقاع ﴿أَحْسَنَ﴾ عليه. وقيل: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ كلام معترض، والخبر قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ و ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ سُرَّةُ الجنة، أي وسطها وسائر الجنات مُحْدِقَة بها. وذكرت بلفظ الجَمع لسَعتها؛ لأن كل بُقعة منها تصلح أن تكون جنة. وقيل: العَدْن الإقامة، يقال: عَدَن بالمكان إذا أقام به. وعَدَنت البلد توطنته. وعَدَنَت الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه؛ ومنه ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات إقامة. ومنه سُمِّيَ المَعْدِن (بكسر الدال)؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء. ومركز كلّ شيء مَعدِنه. والعادن: الناقة المقيمة في المرعى. وعَدَن بلد؛ قاله الجوهري. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ تقدّم في غير موضع. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار. قال سعيد بن جُبَير: على كل واحد منهم ثلاثة أسورة: واحد من ذهب، وواحد من ورِق، وواحد من لؤلؤ.

قلت: هذا منصوص في القرآن، قال هنا ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ وقال في الحج وفاطر ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣] وفي الإنسان ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]. وقال أبو هريرة: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»(١) خرّجه مسلم. وحكى الفرّاء: «يَحْلَون» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال: حَلِيت المرأة تَحْلَى فهي حالية إذا لبست الحَلْي. وحَلِيَ الشي بعيني يَحْلَى؛ ذكره النحاس. والسِّوار سِوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساورة. وقرئ ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣] وقد يكون الجمع أساور. وقال الله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، قاله الجوهري. وقال عُزيز: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سِوار وسُوار، وهو الذي يلبس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قُلْب وجمعه قِلَبَة؛ فإن كان من قَرْن أو عاج فهي مَسَكة وجمعه مَسَك. قال النحاس: وحكى قُطْرب في واحد الأساور إسوار، وقُطْرب

(١) صحيح: مسلم (٢٥٠) في الطهارة.

صاحب شذوذ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره.

قلت: قد جاء في الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء: واحدها إسوار. وقال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السُّنْدُس: الرقيق النحيف، واحده سندسة؛ قاله الكسائي. والإستبرق: ما ثخُن منه عن عكرمة وهو الحرير.

قال الشاعر:

تراهنّ يلبسن المشاعر مَرّة وإستبرقُ الديباج طَوْراً لباسُهَا

فالإستبرق الديباج. ابن بحر: المنسوج بالذهب. القُتَبِيّ: فارسي معرب. الجوهري: وتصغيره أُبَيْرِق. وقيل: هو استفعل من البريق. والصحيح أنه وفاق بين اللغتين؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب، على ما تقدّم، والله أعلم.

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر؛ لأن البياض يبدّد النظر ويؤلم، والسواد يذَم، والخضرة بين البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاع. والله أعلم. روى النسائيّ عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أخبرنا عن ثياب الجنة، أخَلْقٌ يُخلَق أم نسيج ينسج؟ فضحك بعض القوم. فقال لهم: «ممّ تضحكون من جاهل يسأل عالماً» فجلس يسيراً أو قليلاً فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل عن ثياب الجنة»؟ فقال: ها هو ذا يا رسول الله؛ قال «لا بل تشّقق عنها ثمر الجنة»[1] قالها ثلاثاً. وقال أبو هريرة: دارُ المؤمن درّة مجوّفة في وسطها شجرة تنبت الحُلَل ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدرّ والمَرْجان. ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقائقه. وقد ذكرنا إسناده في كتاب التذكرة. وذُكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه، يقول أحد الوجهين للآخر: أنا أكرم على وَلِيّ الله منك، أنا ألِي جسده وأنت لا تلِي. ويقول الآخر: أنا أكرم على وليّ الله منك، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ ﴿الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة، وهي السرر في الحجال. وقيل الفرش في الحجال؛ قاله الزجاج. ابن عباس: هي الأسرّة من ذهب، وهي مكلّلة بالدُّر والياقوت عليها الحجال، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيْلة وما بين عدن إلى الجابية. وأصل متكئين مُوْتكئين، وكذلك أتكأ أصله أوتكأ، وأصل التُّكَأة وُكَأة؛ ومنه التوكّأ للتحامل على الشيء، فقلبت الواو تاء وأدغمت. ورجل وُكَأة كثير الاتّكاء. ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يعني الجنات، عكس «وساءت مرتفقا». وقد تقدّم. ولو كان «نعْمَتْ» لجاز لأنه اسم للجنة. وعلى هذا ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾. وروى البَرَاء بن عازب: أن أعرابيًّا قام إلى رسول الله ﷺ في حجة الوداع، والنبيّ ﷺ واقف بعرفات على ناقته العَضْباء فقال: إني رجل مسلم فأخبرني عن هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر

(١) حسن: أحمد (٢/ ٢٠٣) والنسائي (٥٨٧٢) في الكبرى وحسنه الألباني هناك.

وعثمان وعليّ فـأعْلم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم»[١] ذكره الماورديّ، وأسنده النحـاس في كتاب معاني القرآن، قال: حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا يحيى بن الضُّرَيْس عن زهيـر بن معاوية عن أبي إسحاق عن البراء بن عـازب قال: قام أعرابي. . . ؛ فذكره. وأسنده السُّهَيْلِي في كتاب الاعلام. وقد روّينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله[٢].

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ۚ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تـعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾ هذا مثـل لمن يتعزز بـالدنيا ويستـنكف عن مجـالسة المؤمنين، وهو متّـصل بقوله ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ . واختلف في اسم هذين الرجلين وتعـيينهمـا؛ فقال الكلبي: نزلت في أخوين من أهل مكة مخـزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عـبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عـبد الله بن عمر بن مخـزوم، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيّ ﷺ. والآخـر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة «الصافات» في قوله ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١] ، وَرِث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدُهما مالَه في سبيل الله وطلب من أخيه شيئاً فقال ما قال. . . ؛ ذكره الثعلبيّ والقُشَيريّ[٣]. وقيل: نزلت في النبيّ ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله وجميع مَن كفر. وقيل: هو مَثَل لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابه مع سلمان وصُـهيب وأصحابه؛ شـبّههم الله برجلين من بني إسرائيـل أخوين أحدهما مـؤمن واسمه يهوذا؛ في قول ابن عباس. وقـال مقاتل: اسمه تمليخا. والآخر كافـر واسمه قرطوش. وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات. وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ [٤] قال: اسم الخَيِّر منهما تمليخا، والآخـر قرطوش، وأنهما كـانا شريكين ثم اقتسـما المال فصار لكل واحد مـنهما ثلاثةُ آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتـقهم، وبالألف الثانية ثياباً فكسا العُراة، وبالألف الثالثة طعامـاً فأطعم الجُوّع، وبنى أيضـاً مساجـد، وفعل خيـراً. وأما الآخر فنكح بماله نسـاء ذوات يسار، واشترى دواب وبقراً فاستـنتجها فنمَت له نماء مُفْرِطاً، واتّجر بباقيهـا فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ، فأراد أن يستـخدم نفسه في جنة يخدمها فقـال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي، فجاءه فلم يكدَ يصل إليه من غِلَظ الحجـاب، فلما دخل عليـه وعرفه وسألـه حاجتـه قال له: ألم أكن قاسـمتك المال نصفين فـما صَنعتَ بمالك؟ قال: اشتريت به من الله تعالى ما هو خـير منه وأبقى. فقال: أئنك لمن المصدّقين، ما

(١، ٢) إسنادان ضعيـفـان : محمـد بن حميـد ضعيف مـتهم ، انظر مـعاني القرآن (٤/ ٢٣٥) لـلنحاس والماروردي (٢/ ٤٨٠) في النكت والعيون .

(٣) واه : الكلبي متروك كذاب متهم .

(٤) إياك وهذه الأقاصيص المنقولة عن كعب محرف من التوراة أو الإنجيل .

أظن الساعة قائمة ومـا أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفـاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كَسَبْت وسفهت أنت، أخرج عني. ثم كان من قصة هذا الـغنيّ ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بثـمره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحُسْبان. وقد ذكر الثعلبيّ هذه القصة بلفظ آخـر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها، فاشترى أحدهما أرضـا بألف دينار، فقال صاحبـه: اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضـا بألف دينار وإني اشتريت منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدقَ بها، ثم إن صـاحبه بني داراً بألف دينار فقال: اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني أشتري منك داراً في الجنة بألف دينار، فـتصدَّق بألف دينار، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلاناً تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإني أشتري منك خَدَماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال: لعلّ صاحبي ينالُني معروفه فأتاه فقال: ما فعل مالُك؟ فأخبره قصـته فقال: وإنك لمن المصدّقين بهذا الحديث والله لا أعطيك شيئاً ثم قال له: أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنماً؛ فقال صاحبه: والله لأعظنّه، فوعظه وذكّره وخوّفـه. فقال: سِرْ بنا نصطد السـمك، فمن صاد أكثـر فهو على حق؛ فـقال له: يا أخي إن الدينا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن أو عقاباً لكافر. قـال: فأكرهه على الخروج معه، فابتلاهما الله، فجـعل الكافرُ يرمي شبكته ويسـمّي باسم صنمه، فتطلع مـتدفّقة سـمكاً. وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسـمي باسم الله فلا يطلُع له فيها شيء؛ فـقال له: كيف ترى أنا أكثر منك في الدنيا نـصيباً ومنزلة ونَفَراً، كذلك أكون أفـضلَ منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حـقّاً. قال: فضَجّ المَلَك الموكّل بهما، فأمر الله تعالى جبريلَ أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريَه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعـد الله له قال: وعزّتك لا يضـرّه ما ناله من الدنيا بعـد ما يكون مصـيره إلى هذا؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال: وعزّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا. ثم إن الله تعالى تَوفّى المؤمن وأهلك الكافـر بعذاب من عنده، فلما استقـر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتـساءلون، فقال: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ [الصافات: ٥١] يقول أئنّك لمن المصدِّقين؛ الآية؛ فنادى مناد: يا أهل الجنة هل أنتم مطّلِعـون فاطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم؛ فنزلت ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ (١).

بيّن الله تعـالى حال الأخـوين في الدنيا في هذه السـورة، وبين حالهـما في الآخـرة في سورة «الصافـات» في قوله «﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾. قال ابن عطيـة: وذكر إبراهيم بن القاسـم الكاتب في كتابه في عـجائب البلاد أن بحـيرة تنّيس كانت هاتين الجنتين، وكـانتا لأخوين فباع أحدهمـا نصيبه من الآخر فـأنفق في طاعة الله حتى عيّره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغـرقها الله تعالى في ليلة، وإياها عنى بهذه الآية. وقد قيل: إن

(١) ولا تصح هذه الرواية أيضاً فلا إسناد معتبر لها.

هذا مَثَل ضـربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بـخبر عن حال مـتقدمة، لتـزهد في الدنيا وترغب في الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً؛ ذكره الماوردي. وسياق الآية يدلّ على خلاف هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أي أطفناهما من جوانبهما بنخل. والحـفاف الجانب، وجمعه أحفّة؛ ويقال: حَفَّ القوم بفلان يَحُفُّون حَفًّا، أي طافوا به؛ ومنه ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ . ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أي جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ أي كلّ واحدة من الجنتين ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ تامّا، ولذلك لم يقل آتتا. واختُلف في لفظ «كلْتا وكلاَ» هل هو مفرد أو مثنّى؛ فقـال أهل البصرة: هو مفـرد؛ لأن كلا وكلتا في توكـيد الاثنين نظير «كُلٌّ» في المجـموع، وهو اسم مفـرد غير مثنى؛ فـإذا ولِيَ اسما ظاهراً كـان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحـدة، تقول: رأيت كلا الرجلين وجاءني كلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقـول: رأيت كلَيْهما ومررت بكليهـما، كما تقول عليهـما. وقال الفراء: هو مثنّى، وهو مأخوذ مـن كُلٌّ فخفّفت اللام وزيدت الألف للتثنية. وكـذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقيل: كلْ وكِلْت وكِلان وكِلْتان. واحتج بقول الشاعر:

في كِلْتِ رجْليها سُلاَمى واحدَهْ كلتاهما مَقْرونةٌ بزائدهْ

أراد في إحدى رجليها فـأفرد. وهذا القول ضعيف عندَ أهل البصـرة؛ لأنه لو كان مثنى لوجب أن تكون ألفـه في النصب والجر ياءً مع الاسم الـظاهر، ولأن معنى «كِـلا» مخـالف لمعنى «كل» لأن «كُلا» للإحـاطة و «كِلاَ» يدل على شيء مخـصوص، وأما هذا الشـاعر فإنما حـذف الألف للضرورة وقدّر أنهـا زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجـعل حجة، فـثبت أنه اسم مفرد كَـمعَى، إلا أنه وُضع ليدل على التثنية، كما أن قولهم «نحن» اسم مـفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدل على ذلك قول جرير:

كِلاَ يَوْمَيْ أُمامةَ يومُ صَدٍّ وإن لم نأتها إلا لِماما

فأخـبر عن «كلا» بيوم مـفرد، كما أفـرد الخبر بقولـه «آتت» ولو كان مثنى لقال آتتـا، ويوما. واختلف أيضاً في ألف «كلتا»؛ فقال سيـبويه: ألف «كلتا» للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كِلْوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علَم التأنيث، والألف «في كلتا» قـد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث. وقال أبو عمر الجَرْمِيّ: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كِلْتَوِيّ، فلما قـالوا كِلَوِيّ وأسقطوا التـاء دلّ على أنهم أجروها مُـجْرى التـاء في أخت إذا نسبت إليـها قلت أَخَوِيّ؛ ذكره الجوهري. قال أبو جعفر النحـاس: وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتـين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى المختـار كلتاهما آتتا. وأجاز الفـراء: كلتا الجنتين آتى أكله، قال: لأن المـعنى كل الجنتين. قال: وفي قـراءة عبد اللـه «كلّ الجنتين آتى أكله». والمعنى على هذا عند الفراء: كل شيء من الجنتين آتى أكله. والأُكُل (بضم الهمـزة) ثمر النخل والشجر. وكل ما يؤكل فهو أكُل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ [الرعد: ٣٥] وقد تقدم. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أي لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر. ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق «ثَمَر» بفتح الثاء والميم، وكذلك قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ جمع ثمرة. قال الجوهري: الثمرة واحدة الثمر والثمرات، وجمع الثمر ثمار؛ مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمع الثمار ثُمُر؛ مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق. والثمر أيضاً المال المُثَمَّر؛ يخفف ويثقل. وقرأ أبو عمرو «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال. الباقون بضمها في الحرفين. قال ابن عباس: ذهب وفضة وأموال. وقد مضى في «الأنعام» نحو هذا مبيَّناً. وذكر النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال أخبرنا هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال: لو سمعت أحداً يقرأ ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ لقطعت لسانه؛ فقلت للأعمش: أتأخذ بذلك؟ فقال: لا ولاَ نِعْمَةَ عين. فكان يقرأ «ثُمُر» ويأخذه من جمع الثمر. قال النحاس: فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ يدل على أن له ثمراً.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يراجعه في الكلام ويجاوبه. والمحاورة المجاوبة، والتحاورُ التجاوب. ويقال: كلمته فما أحار إليّ جواباً، وما رجع إليّ حَويراً ولا حَويرة ولا مَحُورة ولا حِواراً؛ أي ما ردّ جواباً. ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر: الرهط وهو ما دون العشرة. وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد، حسبما تقدّم بيانه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ قيل: أخذ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُريه إيّاها. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي بكفره، وهو جملة في موضع الحال. ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه. ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ أنكر فناء الدار. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي لا أحسب البعث كائناً. ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي وإن كان بعثٌ فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه؛ وهو معنى قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكة والمدينة والشام «منهما». وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة «منها»[1] على التوحيد، والتثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝﴾

(١) قراءة سبعية: السبعة ص ٣٩٠ لابن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ يهوذا أو تمليخا؛ على الخلاف في اسمه. ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ وعظه وبيّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة. و ﴿سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ أي جعلك معتدل القامة والخَلْق، صحيحَ الأعضاء ذكراً. ﴿لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمي وأبو العالية. وروي عن الكسائي ﴿لَّـٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ﴾ بمعنى لكن الأمر هو الله ربي، فأضمر اسمها فيها. وقرأ الباقون «لكنا» بإثبات الألف. قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، تقديره: لكن الله هو ربي أنا، فحذفت الهمزة من «أنا» طلباً للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين في الأخرى وحذفت ألف «أنا» في الوصل وأثبتت في الوقف. وقال النحاس: مذهب الكسائي والفرّاء والمازنيّ أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون في النون فالوقف عليها لكنا وهي ألف أنا لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائي:

لَهنّكِ من عَبْسِيَّةٍ لَوَسِيمَةٌ على هَنَوَاتٍ كاذب من يقولها

أراد: لله إنك (لوسيمة)، فأسقط إحدى اللامين من «لله» وحذف الألف من إنك. وقال آخر فجاء به على الأصل:

وترميني بالطَّرْف أي أنت مذنب وتَقْلِينني لكنّ إيّاكِ لاَ أَقْلِي

أي لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورووْا عن عاصم «لكنا هو الله ربي» وزعم أن هذا لحن، يعني إثبات الألف في الإدراج. قال الزجاج: إثبات الألف في ﴿لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ في الإدراج جيد؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضاً. قال: وفي قراءة أُبَيّ «لكن أنا هو الله ربي». وقرأ ابن عامر والمَسِيلِيّ عن نافع ورُويس عن يعقوب «لكنا» في حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف. وقال الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفوني حُمَيْداً قد تَذَرَّيْتُ السِّنَاما

وقال الأعشى:

فكيف أنا وانتحال القوافي بعد المشيب كفى ذاك عاراً

ولا خلاف في إثباتها في الوقف. ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير القصة والشأن والأمر؛ كقوله ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنبياء: ٩٧] وقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركاً بالله تعالى يعبد غيره. ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يسلُب صاحب الدنيا دنياه قَدَر عليه؛ وهو الذي آتاني الفقر. ويحتمل أنه أراد جحودُك البعث مصيرهُ إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى، ومَن عجّزه سبحانه وتعالى شبّهه بخلقه؛ فهو إشراك.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ أي بالقلب، وهو توبيخ ووصيـة من المؤمن للكافـر وردّ عليه، إذ قـال «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيـدَ هذِه أَبَداً» و «ما» في مـوضع رفع، تقديره: هذه الجنة هي ما شاء الله.

وقال الزجـاج والفراء: الأمر مـا شاء الله، أو هو ما شـاء الله؛ أي الأمر مـشيئـة الله تعالى. وقيل: الجـواب مضـمر، أي ما شـاء الله كان، ومـا لا يشاء لا يكون. ﴿ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ أي ما اجتـمع لك من المال فهو بقـدرة الله تعالى وقوته لا بقـدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البـركة منه فلم يجتمع.

الثانية: قال أشهب قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا. وقال ابن وهب قال لي حفص بن مَيْسـرة: رأيت على باب وهب بن منبِّه مكتوباً ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ (١). وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله، قـال: «لا حول ولا قوّة إلا بالله إذا قـالها العبـد قال الله عز وجل أسلم عـبدي واستسلم» (٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى. وفيه: فقال: «يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ألا أدُلُّـك على كلمة من كنز الجنة في رواية على كنز من كنوز الجنـة؛ قلت: ما هي يا رسول الله، قال: «لا حـول ولا قوة إلا بالله» (٣). وعنه قال: قـال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على كلمـة من كنوز الجنة أو قال كنز مـن كنوز الجنة» قلت: بلى؛ فقـال «لا حول ولا قـوة إلا بالله العليّ العظيم» (٤). وروي أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال: باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشـياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليـه البركات. وقالت عائشـة: إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الله قـال المَلَك هُديت، وإذا قال: ما شاء الله قال المَلك: كُـفِيت، وإذا قال: لا قوة إلا بالله قـال المَلك وُقيت (٥). خرجه التـرمذيّ من حديث أنس بن مالك قـال: قال رسول الله ﷺ: «من قال يعني إذا خرج من بيتـه: باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال: كُفِيت ووُقـيت وتنحى عنه الشيطان» (٦) هذا حديث غـريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. خـرجه أبو داود أيضاً وزاد فيه فقـال له: «هُدِيت وكُفِيت ووُقِيت» (٧). وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة

---

(١) عزاه السيوطي (٩/ ٥٤٣) في الدر المنثور لابن أبي حاتم.

(٢) صحيح: أحمد (٢/ ٢٩٨) وصححه العلامة شاكر هناك والألباني (٢٦١٤) في صحيح الجامع.

(٣) صحيح: البخاري (٤٢٠٥) في المغازي، مسلم (٢٧٠٤) في الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: مسلم (٢٧٠٤/ ٤٥) في الذكر والدعاء دون «إلا بالله العلي العظيم» (٢٧٠٤/ ٤٧) أيضاً.

(٥) انظر التالي.

(٦) صحيح: الترمـذي (٣٤٢٦) في الدعوات وصحـحه الألبـاني هناك أبو داود (٥٠٩٥) في الأدب، وابن السني (١٧٨) وصححه الألباني.

(٧) صحيح: انظر السابق.

أن النبيّ ﷺ قال: «إذا خـرج الرجل من باب بيتـه أو باب داره كان معـه مَلَكان موكّلان به فـإذا قال باسم الله قالا هُديت وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا باللـه قالا: وقُيت وإذا قال توكّلت على الله قالا كفيت قال فيلقاه قَرِيناه فـيقولان: ماذا تريدان من رجل قد هُدِيَ ووُقِي وكُفِي» (١). وقال الحاكم أبو عبـد الله في علوم الحديث: سئل مـحمد بن إسـحاق بن خزيمة عن قـول النبيّ ﷺ: «تحاجّت الجنة والنار فقالت هذه يعني الجنة يدخلنـي الضعفاء»(٢) من الضعيف؟ قال: الذي يبـرىء نفسه من الحول والقوّة يعني في اليوم عشـرين مرة أو خمسين مرة.(٣) وقال أنس بن مالك قال النبيّ ﷺ: «من رأى شيئاً فأعجبـه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين»(٤). وقد قال قوم: ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابـه شيء إلا رَضِيَ به. وروي أن من قال أربعاً أمِنَ من أربع: من قال هذه أمِن من العين، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمن من كـيد الشيطان، ومن قال وأفوض أمري إلى الله أمن مكر الناس، ومن قال لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين أمن من الغم(٥).

قولـه تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ ﴿إِن﴾شرط ﴿تَرَنِ﴾ مجزوم به، والجواب ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي﴾ و ﴿أَنَا﴾ فاصلة لا موضع لـها من الإعراب. ويجـوز أن تكون في موضع نصب توكيداً للنون والياء. وقـرأ عيسـى بن عمر «إن ترنِ أنا أقل منك» بالـرفع؛ يجعل ﴿أَنَا﴾ مبـتدأ و ﴿أَقَلَّ﴾ خبره، والجملة في موضع المفـعول الثاني، والمفعول الأول النون والياء؛ إلا أن اليـاء حذفت لأن الكسرة تدل عليها، وإثباتها جيّـد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة. و ﴿فَعَسَىٰ﴾ بمعنى لعل، أي فلعلّ ربي. ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي في الآخرة. وقيل في الدنيا. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك. ﴿حُسْبَانًا﴾ أي مرامي من السمـاء، واحدها حُسْبانة؛ قـاله الأخفش والقُتَبِيّ وأبو عبـيدة. وقال ابن الأعرابي: والحسـبانة السحابة، والحسـبانة الوسادة، والحسبانـة الصّاعقة. وقال الجوهري: والحسبان (بالضم): العـذاب. وقال أبو زيـاد الكلابي: أصاب الأرض حسـبان أي جـراد. والحسـبان أيضـاً الحساب، قال اللـه تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا. قال الزجاج: الحسبان من الحساب؛ أي يرسل عليها عذاب الحـساب، وهو حساب ما اكتسبت يداك؛ فهو من باب حـذف المضاف. والحسـبان أيضـاً: سهـام قصار يرمى بـها في طَلْق واحد، وكـان من رَمْي الأكاسرة. والمرامي من السماء عذاب. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ يعني أرضاً بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قـدم، وهي أضَرّ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض؛ و﴿زَلَقًا﴾ تأكيد لوصف الصعيد؛ أي تزل عنها الأقـدام لملاستـها. يقال: مكان زَلَق (بالتـحريك) أي دَحْض، وهو في الأصل مـصدر قولك: زلِقت رجلـه تَزْلَقَ زَلَقا، وأزلقها غيره. والزلق أيضاً عجز الدابة. قال رُؤْبة:

---

(١) ضعيف : ابن ماجة (٣٨٨٦) في الدعاء وضعفه الألباني هناك .

(٢) هذا في الصحيحين وقد سبق .

(٣) انظر معرفة علوم الحديث ص ٨٤ للحاكم ، وفيض القدير (٣/ ١٠٢) للمناوي .

(٤) ضعيف جداً : الهيثمي (٥/ ١٠٩) في المجمع وعزاه للبزار من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفيه أبو بكر الهذلي ضعيف جداً وابن السني (٢٠٧) بترقيمي بنفس الإسناد .

(٥) ولكن أين الإسناد .

كأنها حَقْباءُ بَلْقاء الزَّلَق

والمَزْلَقَة والمُزْلَقة: الموضع الذي لا يثبت عليه قدم. وكذلك الزَّلاّقة. والزَّلَق الحَلْق، زَلَق رأسَه يَزْلِقُه زَلْقا حلقه؛ قاله الجوهري. والزَّلَق المحلوق، كالنَّقْض والنَّقَض. وليس المراد أنها تصير مزلقة، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلق لا يبقى عليه شعر؛ قاله القشَيْريّ. ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً ذاهباً، فتكون أعدمَ أرض للماء بعد أن كانت أوجدَ أرض للماء. والغَوْر مصدر وضع موضع الاسم؛ كما يقال: رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ ورِضاً وفَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نوحٌ؛ ويستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع. قال عمرو بن كُلثوم:

تظَلّ جياده نَوْحاً عليه مقلَّدة أعنّتها صُفُونا

آخر:

هَريقي من دموعهما سجاما ضُباع وجاوبي نوحاً قياما

أي نائحات. وقيل: أو يصبح ماؤها ذا غَوْر؛ فحذف المضاف؛ مثلُ ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ذكره النحاس. وقال الكسائي: ماءٌ غَوْرٌ. وقد غار الماء يَغُور غَوْراً وغُؤُوراً، أي سفَل في الأرض، ويجوز الهمز لانضمام الواو. وغارت عينه تَغُور غَوْراً وغُؤُوراً؛ دخلت في الرأس. وغارت تَغار لغة فيه. وقال:

أغارتْ عينهُ أم لم تَغَارَا

وغارت الشمس تغور غِيارا، أي غربت. قال أبو ذُؤيب:

حتى الدهر إلاّ ليلة ونهارُها وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها

﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي لن تستطيع ردّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة. وقيل: فلن تستطيع طلب غيره بدلاً منه. وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وأُحيطَ بِثَمَرِهِ﴾ اسم ما لم يسم فاعله مضمر، وهو المصدر. ويجوز أن يكون المخفوض في موضع رفع. ومعنى ﴿وأُحيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي أهْلك مالهُ كله. وهذا أوّل ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي فأصبح الكافر يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً؛ لأن هذا يصدر من النادم. وقيل: يقلّب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يعبَّر عنه باليد، من قولهم: في يده مال، أي في ملكه مال. ودلّ قوله ﴿فَأَصْبَحَ﴾ على أن هذا الإهلاك جرى بالليل؛ كقوله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩] ويقال: أنفقتُ في هذه الدار كذا وأنفقت عليها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي خالية قد سقط بعضها على بعض؛ مأخوذ من خَوَت النجوم تخوى خَيًّا أمْحَلَتْ، وذلك إذا سقطت ولم تُمطر في نَوْئها. وأخْوَت مثله. وخَوّت الدار خَواء أقْوَت، وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] ويقال ساقطة؛ كما يقال فهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقوفها؛

فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل، وهذا مـن أعظم الجوائح، مقابلةً على بَغْيه. ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي يا ليتني عـرفت نعم الله عليّ، وعرفت أنهـا كانت بقدرة الله ولم أكـفر به. وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم.

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تـعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَـةٌ يَنصُـرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿فِئَـةٌ﴾ اسم ﴿تَكُن﴾ و ﴿لَّهُ﴾ الخبـر. ﴿يَنصُرُونَهُ﴾ في موضع الصـفة، أي فئة ناصـرة. ويجوز أن يكون ﴿يَنصُرُونَهُ﴾ الخبر. والوجه الأوّل عند سيبويه أولى لأنه قد تقدّم ﴿لَّهُ﴾. وأبو العباس يخالفه، ويحتج بقول الله عز وجل ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وقد أجاز سيبويه الآخرَ. و ﴿يَنصُرُونَهُ﴾ على معنى فئة؛ لأن معناها أقوام، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره؛ أي فرقة وجماعة يلتجئ إليهم. ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي ممتنعاً؛ قاله قـتادة. وقيل: مسـترِدًّا بدل ما ذهب منه. وقد تقدم اشـتقاق الفئـة في «آل عمران». والهاء عوض من الياء التي نقصت من وسطه، أصله فِيءٌ مـثلُ فِيع؛ لأنه من فاء، ويجمع على فِئون وفِئـات، مثل شِيَات ولِـدَات وَمِئات. أي لم تكن له عـشيرة يمنعونه مـن عذاب الله، وضلّ عنه مَن افتخر بهم من الخدم والولد.

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف في العامل في قولـه ﴿هُنَالِكَ﴾ وهو ظرف؛ فقيل: العامل فـيه ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾ ولا كـان هنالك؛ أي ما نُصـر ولا انتـصر هنالك، أي لما أصـابه من العذاب. وقيل: تم الكلام عند قولـه ﴿مُنتَصِرًا﴾. والعامل في قولـه: ﴿هُنَالِكَ﴾ ﴿الْوَلَايَةُ﴾ وتقديره على التقديم والـتأخير: الولاية للـه الحقّ هنالك، أي في القـيامة. وقرأ أبو عمـرو والكسائي «الحقُّ» بالرفع نعتاً للولاية. وقـرأ أهل المدينة وحمزة «الحقّ» بالخفض نعتاً لله عـز وجل، والتقدير: لله ذي الحق. قال الزجاج: ويجوز «الحقَّ» بالنـصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقـول: هذا لك حقاً. وقرأ الأعمش وحـمزة والكسائي «الوِلاية» بكسـر الواو، الباقون بفـتحها، وهمـا بمعنًى واحد كالرِّضـاعة والرَّضاعة. وقيل: الوَلاية بالـفتح من الموالاة؛ كقولـه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد: ١١]. وبالكسر يعني السلطان والقدرة والإمـارة؛ كقولـه: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] أي لـه الملك والحكم يومئذ، أي لا يُردّ أمـره إلى أحد؛ والملك في كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتّـوَهّمات يوم القيامـة. وقال أبو عبيـد: إنها بفتح الواو للخـالق، وبكسرها للمخلوق. ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي الله خيـر ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثَمّ غـير يُرْجَى منه، ولكنه أراد في ظن الجهال؛ أي هو خير مَن يُرجى. ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى «عُقْبا» سـاكنة القاف، الباقون بضمها، وهما بمعنًى واحد؛ أي هو خيـر عاقبة لمن رجاه وآمن به. يقال: هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعَقِبُه، أي آخره.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مَثَلَ الحياة الدنيا، أي شبهها. ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي بالماء. ﴿نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ حتى استوى. وقيل: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر. وقد تقدّم هذا المعنى في «يونس» مبيَّناً. وقالت الحكماء: إنما شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً مُنْبِتًا، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفع وفضولها يضرّ. وفي حديث النبيّ ﷺ: قال له رجل: يا رسول الله، إني أريد أن أكون من الفائزين؛ قال: «ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفي والكثير منها يُطغي»(١). وفي صحيح مسلم عن النبيّ ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»(٢). ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي النبات ﴿هَشِيمًا﴾ أي متكسّراً من اليُبس متفتّتاً، يعني بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه. والهَشْم: كسر الشيء اليابس. والهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلانٌ إلا هشيمةُ كَرْمٍ؛ إذا كان سَمْحاً. ورجل هَشيم: ضعيف البدن. وتهشّم عليه فلان إذا تعطّف. واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه. ويقال: هَشَمَ الثَّريد؛ ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

عَمْرُو العُلاَ هَشَمَ الثريدَ لقومه ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُون عجافُ

وكان سبب ذلك أن قريشاً أصابتهم سِنونَ ذهبْن بالأموال فخرج هاشم إلى الشأم فأمر بخبز كثير فخبز له، فحمله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، وهشم ذلك الخبز، يعني كسره وثَرده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطُّهاة فطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحِباء بعد السنة التي أصابتهم؛ فسمِّيَ بذلك هاشماً. ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي تفرقه؛ قاله أبو عبيدة. ابن قتيبة: تنسفه. ابن كَيْسان: تذهب به وتجيء. ابن عباس: تديره؛ والمعنى متقارب. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «تذريه الريح». قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله «تُذريه». يقال: ذَرَتْه الريح تَذْرُوه ذَرْوًا و(تَذريه) ذَرْياً وأذرته تُذْريه إذْراء إذا طارت به. وحكى الفراء: أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته. وأنشد سيبويه والفراء:

فقلت له صَوِّبْ ولا تَجهدَنَّهُ فَيُذْرِكَ من أُخْرَى القَطاةِ فَتَزْلَقِ

---

(١) هذا أثر منكر للغاية.

(٢) صحيح: مسلم (١٠٥٤/ ١٢٥) في الزكاة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء، سبحانه

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويجوز «زينتا» وهو خبر الابتداء في التثنية والإفراد. وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوّة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن معه قرينة الصفة للمال والبنين؛ لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة فلا تُتبعوها نفوسكم. وهو رَدٌّ على عُيينة بن حِصْن وأمثاله لما افتخروا بالغنى والشرف، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم حين ذرته الريح؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة. وكان يقال: لا تعقد قلبك مع المال لأنه فَيْءٌ ذاهب، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لغيرك. ويكفي في هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي ما يأتي به سلْمان وصُهيب وفقراء المسلمين من الطاعات ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي أفضل ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي أفضل أملا من ذي المال والبنين دون عمل صالح، وليس في زينة الدنيا خير، ولكنه خرج مخرج قوله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] وقيل: خير في التحقيق مما يظنّه الجهال أنه خير في ظنّهم.

واختلف العلماء في ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾؛ فقال ابن عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة وعمرو بن شُرَحْبيل: هي الصلوات الخمس. وعن ابن عباس أيضاً: أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة. وقاله ابن زيد ورجّحه الطبري. وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا. وقال عليّ رضي الله عنه: الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام. وقال الجمهور: هي الكلمات المأثور فضلها: سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. خرّجه مالك في موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيِّب أنه سمعه يقول في الباقيات الصالحات: إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله[1]. أسنده النَّسائيّ عن أبي سعيد الخُدْريّ أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: المسألة: وقيل ما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوّة إلا بالله» [2]. صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله. وروى قتادة: أن رسول

---

(١) صحيح مقطوعا : الإمام مالك حديث رقم (٢٣) في كتاب القرآن باب (٧) من الموطأ ، وابن كثير (٥/ ١٢٣) في تفسيره .

(٢) ضعيف : أحمد (٣/ ٧٥) وأبو يعلى (١٣٨٤) والطبري (١٥/ ٢٥٥) وفيه رواية دراج أبي السمح عن أبي الهيثم وفيها ضعف بين .

الله ﷺ أخذ غُصْناً فخرطه حتى سقط ورقه وقال: «إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتّت خطاياه كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات»(١). ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها»(٢). وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ مرّ بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال: «إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة»(٣). قال: هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه قد رآه ونظر إليه. وخرج الترمذي أيضاً عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسْرِيَ بي فقال يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التُّربة عذبة الماء وأنها قِيعان وأن غِراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» قال(٤): حديث حسن غريب، خرّجه الماوردي بمعناه. وفيه فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو يَغرس غَرْساً فقال: «يا أبا هريرة ما الذي تغرس؟» قلت: غِراساً. قال «ألا أدُلّك على غِراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة»(٥). وقد قيل: إن الباقيات الصالحات هي النيات والهمّات؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع؛ قاله الحسن. وقال عُبيد بن عُمير: هن البنات؛ يدل عليه أوائل الآية؛ قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم قال ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ يعني البنات الصالحات هنّ عند الله لآبائهن خير ثواباً، وخير أملاً في الآخرة لمن أحسن إليهن. يدّل عليه ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: دخلتْ عليّ امرأة مسكينة... الحديث(٦)، وقد ذكرناه في سورة النحل في قوله ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ [النحل: ٥٩] الآية. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لقد رأيت رجلاً من أمتي أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن ربِّ إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحمه الله بهن». وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قال: أبدلهما منه ابنة فتزوجها نبيّ فولدت له اثني عشر غلاماً كلهم أنبياء.

---

(١) منقطع: بين قتادة وأبي الدرداء رضي الله عنه، ورواه السيوطي (٩/ ٥٥٤) بنحوه في الدر وعزاه لابن مردويه عن أنس رضي الله عنه.
ثم رواه الطبراني (١٠/ ٩٠) وابن ماجة (٣٨١٣) بسند ضعيف كما قال الألباني ـ رحمه الله، ولكن عن أبي الدرداء لا عن قتادة وليس فيه ذكر قتادة من قريب أو من بعيد.

(٢) ضعيف: انظر السابق.

(٣) حسن: الترمذي (٣٥٣٣) في الدعوات وحسنه الألباني هناك.

(٤) حسن: الترمذي (٣٤٦٢) في الدعوات وحسنه الألباني هناك.

(٥) صحيح: ابن ماجة (٣٨٠٧) في الدعاء وصححه الألباني هناك.

(٦) صحيح: وقد سبق.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال. قال النحاس: وهذا غلط من أجل الواو. وقيل: المعنى واذكر(١) يوم نسيّر الجبال، أي نزيلها من أملكنها من على وجه الأرض، ونسيرها كما نسير السحاب؛ كما قال في آية أخرى ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ثم تكسر فتعود إلى الأرض؛ كما قال ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥] وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر «ويوم تُسَيَّر» بتاء مضمومة وفتح الياء. و ﴿الْجِبَالُ﴾ رفعا على الفعل المجهول. وقرأ ابن مُحَيْصن ومجاهد «ويوم تسير الجبال» بفتح التاء مخففاً من سار. «الجبال» رفعاً. دليل قراءة أبي عمرو ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٣]. ودليل قراءة ابن محيصن ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور: ١٠]. واختار أبو عبيد القراءة الأولى «نسيّر» بالنون لقوله ﴿حَشَرْنَاهُمْ ﴾. ومعنى ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بنيانها؛ فهي بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهل التفسير. وقيل: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي برز ما فيها من الكنوز والأموات؛ كما قال ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٤] وقال ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ٢] وهذا قول عطاء. ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أي إلى الموقف. ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي لم نترك؛ يقال: غادرت كذا أي تركته. قال عنترة:

غَادَرْتُه مُتَعَفِّرًا أوصالهُ والقومُ بين مُجَرَّحٍ ومُجَدَّلِ

أي تركته. والمغادرة الترك؛ ومنه الغَدْر؛ لأنه ترك الوفاء. وإنما سمي الغدير من الماء غديراً لأن الماء ذهب وتركه. ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها. يقول: حشرنا بَرّهم وفاجِرَهم وجنّهم وإنسهم.

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ﴿ صَفًّا ﴾ نصب على الحال. قال مقاتل: يعرضون صفًّا بعد صفٍّ كالصفوف في الصلاة، كل أمة وزمرة صفا؛ لا أنهم صفٌّ واحد. وقيل جميعاً؛ كقوله ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴾ [طه: ٦٤] أي جميعاً. وقيل قياماً. وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْدَه في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أحْضِروا حجتكم ويسّروا جواباً فإنكم مسؤولون محاسبون. يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب».

(١) لم أجده هكذا.

قلت: هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه في كتاب التذكرة، ومنه نقلناه والحمد لله.

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي يقال لهم: لقد جئتمونا حُفاةً عُراة، لا مالَ معكم ولا ولداً. وقيل فرادَى؛ دليله قوله ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الانعام: ٩٤] وقد تقدم. وقال الزجاج: أي بعثناكم كما خلقناكم. ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ هذا خطاب لمنكري البعث؛ أي زعمتم في الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعداً للبعث. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلاً» قلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[1]. «غُرْلاً» أي غير مختونين. وقد تقدم في «الأنعام» بيانه.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ ﴿الْكِتَابُ﴾ اسم جنس، وفيه وجهان: أحدهما أنها كتب الأعمال في أيدي العباد؛ قاله مُقاتل. الثاني أنه وضْع الحساب؛ قاله الكَلْبيّ، فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة. والقول الأوّل أظهر؛ ذكره ابن المبارك قال: أخبرنا الحكم أو أبو الحكم شكّ نَعيم عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بني أسد قال قال عمر لكعْب: وَيْحك يا كعب حدِّثنا من حديث الآخرة؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة رُفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله قال ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتنثر حول العرش، وذلك قولُه تعالى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ قال الأسدي: الصغيرة ما دون الشرك، والكبيرة الشرك، إلا أحصاها قال كعب: ثم يدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته ليكلا يقول كانت لي حسنات فلم تذكر فأحبّ الله أن يُريه عمله كلّه حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخر ذلك كلّه أنه مغفور وأنك من أهل الجنة؛ فعند ذلك يُقبل إلى أصحابه ثم يقول ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يُلَفّ فيجعل من وراء ظهره ويُلْوَى عنقه؛ فذلك قولُه ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ١٠] فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات. وكان الفُضيل بن عِيَاض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه ضجوٌّ إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر. قال ابن عباس: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك؛ يعني ما كان من ذلك في معصية الله عز وجل؛ ذكره الثعلبيّ. وحكى الماوَرْديّ عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك.

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية، فإن الضحك من المعصية رِضاً بها

---

(١) صحيح: وقد سبق.

والرضا بالمعصية معصية، وعلى هذا تكون كبيرة، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم. أو يُحمل الضحك فيما ذكر الماورديّ على التبسم، وقد قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩] وقال سعيد بن جبير: إن الصغائر اللَّمَمُ كالمسيس والقُبَل، والكبيرة المواقعة والزِّنى. وقد مضى في «النساء» بيان هذا. قال قتادة: اشتكى القوم الإحصاء، وما اشتكى أحد ظلماً، فإياكم ومحقَّرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه[١]. وقد مضى. ومعنى ﴿أَحْصَاهَا﴾ عدّها وأحاط بها؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسُّعاً. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي وجدوا إحصاء ما عملوا حاضراً. وقيل: وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي لا يأخذ أحداً بجرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعمله؛ قاله الضحاك. وقيل: لا ينقص طائعاً من ثوابه ولا يزيد عاصياً في عقابه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ تقدم في «البقرة» هذا مستوفًى. قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآية سؤال، يقال: ما معنى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ففي هذا قولان: أحدهما وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أُمر فعصَى، فكان سببَ الفسق أمرُ ربه؛ كما تقول: أطعمته عن جوع. والقول الآخر وهو مذهب محمد بن قُطْرب أن المعنى: ففسق عن ردّ أمر ربه. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ وقف عز وجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله أفتتخذونه يا بني آدم وذريّته أولياء وهم لكم عدوّ؛ أي أعداء، فهو اسم جنس. ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله. أو بئس إبليس بدلاً عن الله. واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه؛ فقال الشعبيّ: سألني رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إن ذلك عُرْس لم أشهده، ثم ذكرت قوله ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم. وقال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً وفي اليسرى فرجاً؛ فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يَخْرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة. وقال قوم: ليس له أولاد ولا ذرية، وذرّيته أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر: والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرّية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقّف الأمر فيه على نقل صحيح[٢].

قلت: الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن

---

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (١٥/٢٥٨) في تفسيره.

قلت: وقوله: «إياكم ومحقرات الذنوب» حديث حسن: رواه أحمد (١/٤٠٢) في المسند عن ابن مسعود، و(٥/٣٣١) عن سهل بن سعد رضي الله عنهما والإسنادان كلاهما حسن.

(٢) وقد سبق تضعيف هذه الآثار كلها.

الإمام أبي بكر البَرْقاني أنه خرج في كتابه مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكن أوّلَ من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ»[١]. وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله أعلم. قال ابن عطية: وقوله ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل. وذكر الطبري[٢] وغيره أن مجاهداً قال: ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدّهم: زَلَنْبُور صاحبُ الأسواق، يضع رايته في كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أوّل من يفتح وآخر من يغلق. وثبر صاحب المصائب، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب، والدعاء بالويل والحرب. والأعور صاحب أبواب الزنى. ومسوط صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلاً. وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلّم ولم يذكر اسم الله بصّرَه من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسَن موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه. قال الأعمش: وإني ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلّم، فرأيت مطهرة فقلت: ارفعوا هذه وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم أعوذ بالله منه[٣] زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد[٤]: والأبيض، وهو الذي يوسوس للأنبياء. وصخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان عليه السلام. والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها. والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها. ومُرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكْنَى. والهفاف يكون بالصحارى يُضلّ الناس ويتيههم. ومنهم الغيلان. وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد[٥] أن الهفاف هو صاحب الشراب، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان. قال وقال الدّارانيّ: إن لإبليس شيطاناً يقال له المتقاضي، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله في السرّ منذ عشرين سنة، فيحدّث به في العلانية. قال ابن عطية: وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح[٦]، وقد طوّل النقاش في هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمرّ بي في هذا صحيح إلا ما كان في كتاب مسلم من: أن للصلاة شيطاناً يسمى خِنْزب[٧]. وذكر الترمذي: أن للوضوء شيطاناً يسمى الولهان[٨].

---

(١) صحيح: مسلم (٢٤٥١/ ١٠٠) فضائل الصحابة عن سلمان رضي الله عنه.

(٢) هذا عند الطبري (١٥/ ٣٦٢) وهو ضعيف فإن فيه انقطاعاً بين ابن جريج ومجاهد.
قلت: ولا يصح هذا كله أبداً لعدم اعتماده على نص صحيح من الكتاب والسنة.

(٣) انظر السابق / نفسه.

(٤) إياك وهذه الأقوال التي سوّد بها الثعلبي صفحات كتابه.

(٥) وهذا أيضاً احذره على نفسك ودينك فهذا غيب يحتاج إلى شهادة من الله تعالى أو نبيه ﷺ ولا سبيل إلى ذلك وإن ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء.

(٦) وهذا هو المعتبر هنا.

(٧) صحيح: مسلم (٢٢٠٣/ ٦٨) في السلام عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.
قلت: وتنطق بكسر الخاء، وبفتحها.

(٨) ضعيف: الترمذي (٥٧) في الطهارة، وابن ماجة (٤٢١) في الطهارة وضعفه الترمذي وقال: وليس إسناده =

قلت: أما ما ذُكر من التعيين في الاسم فصحيح وأما أن له أتباعاً وأعواناً وجنوداً فمقطوع به، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أن له أولاداً من صلبه، كما قال مجاهد وغيره. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدّثهم بالحديث من الكذب فيتفرّقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدّث[١]. وفي مسند البَزّار عن سلمان الفارسي قال: قال النبيّ ﷺ: «لا تكونن إن استطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته»[٢]. وفي مسند أحمد بن حنبل قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك قال: حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلماً ألبسته التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلّق زوجته، قال: يوشك أن يتزوّج. ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عَقّ؛ قال: يوشك أن يَبَرّ. قال ويقول القائل: لم أزل بفلان حتى شَرِب؛ قال: أنت قال ويقول: لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال: أنت قال ويقول: لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال: أنت أنت[٣]! وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا فيقول: ما صنعتَ شيئاً قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه وبين أهله قال فيُدنيه أو قال: فيلتزمه ويقول: نعم أنت»[٤]. وقد تقدّم. وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثَغْر[٥] الإسكندرية يقول: إن شيطاناً يقال له البيضاوي يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنّون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا.

تم الجزء العاشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادي عشر وأوّله «الآية ٥١ من سورة الكهف»

= بالقوى، وأعله بـ (خارجة بن مصعب) أحد رواته وضعفه الألباني في الموضعين وهو عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

(١) صحيح موقوفاً : مسلم (١/ ١٢) في المقدمة باب النهي عن الرواية عن الضعفاء .

(٢) صحيح : سبق قبل ثمانية تخريجات .

(٣) حسن : الهيثمي (١/ ١١٤) في مجمع الزوائد وعزاه للطبراني في الكبير وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط وبقية رجاله ثقات . وانظر الحاكم (٤/ ٢٩٠) وصححه .

(٤) صحيح : مسلم (٢٨١٣) في صفة القيامة قال ابن كثير (١/ ٨٥) في البداية : يروي بفتح النون بمعنى : نعم أنت ذاك الذي تستحق الإكرام ، وبكسرها : أي نعم منك .
وقد استدل بعض النحاة على جواز كون فاعل نِعْمَ مضمراً وهو قليل ، واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ـ يعني بفتح النون ـ ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم .(ا. هـ)

(٥) الثغر : الموضع الذي يكون حدا فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار وهو موضع المخافة من أطراف البلاد . راجع : لسان العرب مادة (ثغر) .